
بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية

دكتور / قاسم عبده قاسم*

• أستاذ بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الكويت

عالم الفكر

مدخل إلى الدراسة - التركيب السكاني في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر -
تأثير الحروب الصليبية على بنية المجتمع - العادات والتقاليد ومدى تأثير الصليبيين بها - خاتمة .

جاءت الحركة الصليبية تناسجا للتطورات التي صنعت تاريخ أوروبا الكاثوليكية قبل القرن
الحادي عشر الميلادي من جهة ، كما كان نجاحها نتيجة للظروف التاريخية التي حكمت الشرق
العربي الإسلامي والدولة البيزنطية آنذاك من جهة أخرى . وإذا كانت البابوية قد نجحت في قيادة
الغرب الكاثوليكي تحت الراية الصليبية بحيث اتخذت الحركة الصليبية شكلها المعروف تاريخيا عبر
المعارك التي دارت رحاها على أرض العالم العربي الإسلامي وفوق الأرض البيزنطية ؛ فإن التشرذم
السياسي في المنطقة العربية وضعف الإمبراطورية البيزنطية كان من أهم عوامل نجاح الفرنج في زرع
مملكة وبعض الإمارات الصليبية فوق الأرض العربية .

لقد نال العالم العربي الإسلامي ، الذي مزقته الخلافات والمنازعات المستعرة بين حكامه ،
ضربة مفاجئة في أواخر القرن الحادي عشر أثارت الذعر في أوصاله . فقد كانت السلطة السياسية في
هذه المنطقة موزعة بين خلافتين كبيرتين : الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية
الشيعية في القاهرة . وبسبب منازعتهم العقيدية والسياسية تحولت بلاد الشام إلى ميدان مثالي لهذا
التنافس ؛ فتوزعت قواه السياسية بين عدة كيانات أو إمارات صغيرة المساحة بالغة الضعف والوهن .
ثم دخل الأتراك السلاجقة لنجدة الخلافة العباسية التي نجح الفاطميون في الوصول إلى عاصمتها ،
وحاولوا إحداث انقلاب في السلطة .^(١) وأقاموا لأنفسهم عددا من الإمارات الصغيرة إلى جانب

الإمارات الأخرى التي كانت قائمة بالفعل قبل قدومهم . وكانت كل خلافة من الاثنتين تعتبر الأخرى مغتصبة للسلطة وتدعي لنفسها الشرعية الكاملة . ومن ناحية أخرى فإن المصالح المكتسبة للحكام المحليين في بلاد الشام والعراق ، إلى جانب مصالح السلاجقة في فارس ، حالت دون تعبئة الجهود العربية الإسلامية الهائلة ؛ سواء على المستوى الاقتصادي ، أو السكاني ، لمواجهة الغزو والاستيطان الصليبي .

! هذه الفوضى السياسية كانت من أهم عوامل تقدم الصليبيين حتى تمكنوا من أخذ مدينة بيت المقدس في الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ م^(٢) . وعلى مدى جيلين كاملين استغل الصليبيون حال الدهشة واللعجز التي استولت على المنطقة العربية الإسلامية لتدعيم غزواتهم وخلق دولة وكيان استيطاني تمكن من الصمود في مواجهة القوى العربية الإسلامية على مدى قرنين من الزمان تقريبا .

وعندما بلغ التوسع والاستيطان الصليبي ذروته كانت قد مرت حوالي خمسين سنة ثبت خلالها عجز محور القاهرة - دمشق عن أي عمل مشترك لمواجهة العدو الصليبي ، فقد عجزت الكيانات الصغيرة في بلاد الشام عن التعاون في خلق جبهة واحدة بسبب الشك والمراة التي خلفتها المنازعات والحروب طوال القرن السابق ، كما ثبت أن مصر ، بكل مواردها الاقتصادية وقوتها البشرية ، أضعف من أن تقوم بالمهمة بمفردها . وعلى الرغم من أن اتفاقيات سريعة عقدت بين القوى السياسية في بلاد الشام وبين مصر بقصد العمل المشترك ؛ فإن هذه التحالفات السريعة كانت تنفصم بنفس السرعة التي عقدت بها . وقد كان انعدام الثقة وقصر النظر السياسي وراء هذا الفشل على محور القاهرة / دمشق .

يبد أن رد الفعل العربي الإسلامي ، الذي تأخر كثيرا ، بدأ من الموصل حيث كان حكامه من " آل زنكي " يدينون بالولاء للسلطان السلجوقي في فارس . ومن ناحية أخرى كان هذا نتيجة للتغير الهام الذي طرأ على المعسكر العربي الإسلامي ؛ إذ أن تدفق أعداد السلاجقين الهاربين من وجه الصليبيين إلى مناطق العالم العربي الإسلامي أثار مشاعر الغضب والاستياء العام ضد حكام المنطقة ، وسرعان ما تطورت هذه الحركة لتأخذ شكلا شعبيا تبلور حول " الجهاد " ، فريضة وشعارا التفت حوله أبناء الأمة العربية الإسلامية لخوض الحرب ضد الفرنج " الكفار " . وإلى جانب النشاط الشعبي العام في سائر أنحاء المنطقة العربية ، أخذ المفكرون والمثقفون من قادة الرأي العام يدبجون الكتب والرسائل التي تتحدث عن فضل الجهاد والمجاهدين ، وفضائل بيت المقدس التي كانت محور الصراع ورمزه الواضح . وبات العالم العربي الإسلامي في جوٍّ أريج الحماة الدينية ، وشعاره الجهاد ، وهدفه أن يتم تحرير الأرض العربية المسلمة من الأسر الصليبي .

وكان نجاح عماد الدين زنكي في الاستيلاء على مدينة الرها سنة ١١٤٤ م^(٣١) نذير شؤم للوجود الصليبي كله؛ إذ كانت أول إمارة صليبية على أرض الشرق العربي الإسلامي، كما أنها ارتبطت بالتراث المسيحي الباكر على نحو جعل مكانتها العاطفية كبيرة في نفوس المسيحيين. وواصل نور الدين محمود، ابن عماد الدين زنكي وخليفته، سياسة الهجوم على الكيان الصليبي؛ ولكن إمارة دمشق كانت حائلا دون تنفيذ خطة نور الدين لتوحيد المنطقة، كما أن نور الدين واجه مساعدة الصليبيين لحاكم دمشق كما واجهها أبوه من قبل. ثم جاءت ظروف الحملة الصليبية الثانية، وهجومها الفاشل على دمشق لقلب الموازين؛ فيشور أهل دمشق على حاكمها ويطلبون من نور الدين محمود أن يتولى حكم مدينتهم^(٣٢).

في تلك الأثناء كانت الخلافة الفاطمية على ضفاف النيل في مرحلة الشيخوخة، وبدا أن الخلافة التي كانت قوية مهابة لم يعد لها سوى ظل باهت من سطوتها، وباتت مثل الرجل المريض ينتظر الجميع موته لتوزيع تركته. فقد تعاقب على عرش الخلافة الفاطمية في القاهرة مجموعة من الخلفاء الضعاف، وانتقلت السلطة الفعلية إلى الوزراء. وحدث أن نشب صراع حول كرسي الوزارة بين شاور وضرغام، وكانت هذه فرصة أمام كل من نور الدين محمود، وأمالريك (عموري) ملك بيت المقدس الصليبي للتسابق على الفوز بمصر التي يمكن أن تحسم الصراع بمواردها الكبيرة. وانتهى الأمر حين اختارت جماهير المصريين الوقوف مع قوات نور الدين محمود، وفي طيات هذا الصراع تلقى صلاح الدين الأيوبي أول دروسه عن حقائق الصراع العربي/الصليبي. وقد توجت المرحلة بنجاح جيوش المسلمين - بقيادة صلاح الدين - في استعادة بيت المقدس وتقليص المساحة الصليبية على خريطة بلاد الشام وأعلى الجزيرة.

لكن التفكك والمنازعات التي استغرق فيها الحكام الأيوبيون - بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي - أطالت فترة الصراع مائة سنة أخرى، ولم تحسم سوى بعد نجاح سلاطين المماليك في توحيد مصر والشام وبقية المنطقة العربية. وفي سنة ١٢٩١ م قاد السلطان الأشرف خليل الجيش المصري الذي تعاون مع الجيوش التي خرجت من فلسطين وبلاد الشام في الاستيلاء على عكا - آخر المعاقل الصليبية - وأسدل الستار على الفصل الأخير من قصة الوجود الصليبي فوق الأرض العربية.

هذه الأحداث - التي عرضنا لخطوطها العريضة باختصار وتركيز - استمرت طوال ما يقرب من مائتي سنة كان الكيان الصليبي موجودا أثناءها فوق الأرض العربية. وكان لهذا الوجود إفرزاته الذاتية على المستوى العسكري والاقتصادي والثقافي والاجتماعي. فقد كان هناك مجتمع، أوروبي كاثوليكي يتوطن أرض الشرق العربي الإسلامي وتحت سماء بلاد الشام، وكان طبيعيا أن يتأثر بالثقافة

السائدة، والمجتمع المحيط، والتراث الحضاري للمنطقة بوجه عام. كذلك كان لوجود هذا الكيان الاستعماري الاستيطاني الغريب تأثيره على الكيان الاجتماعي الأصيل في بلاد الشام من ناحية، وعلى شكل الحياة الاجتماعية آنذاك من ناحية أخرى.

والحقيقة أن بلاد الشام تضم تركيبة سكانية متعددة العناصر؛ ففي عصر الحروب الصليبية كانت التركيبة السكانية تضم عناصر عربية، وأخرى تركية وكردية وأرمنية، وبيزنطية، وسوريانية. والسبب في هذا الفسيفساء السكاني يرجع - في تصورنا - إلى سببين رئيسيين: أولهما يتمثل في الامتداد الشاسع والموقع المتوسط لبلاد الشام، وثانيهما يتجسد في ذلك الشراء التاريخي المتمثل في تعدد الحضارات التي نمت وازدهرت في ربوع بلاد الشام من ناحية أخرى. بيد أن هذا لا يمنع من القول بحقيقة تاريخية مؤداها أن المنطقة كانت - بشكل عام - داخل النسيج الكلي للحضارة العربية الإسلامية عندما بدأت الحروب الصليبية.

فمن المعروف أن بلاد الشام كانت موطناً لبعض القبائل العربية منذ عصور موعلة في القدم، كما أن الفتح الإسلامي لبلاد الشام فتح الطريق أمام قبائل عربية جديدة استقرت في مناطق متعددة من بلاد الشام، وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت القبائل العربية تنتشر فوق مناطق متنوعة؛ بل إن بعض العائلات الكبيرة من أبناء هذه القبائل تمكنت من إقامة إمارات شبه مستقلة لها في بعض المدن الكبيرة.

وقد جاءت هذه الإمارات العربية في بلاد الشام ثمرة لذلك التطور الاجتماعي الذي حدث منذ بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والذي تمثل في نزوح بعض القبائل العربية الساكنة في مناطق الحدود بين بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة إلى داخل بلاد الشام. وقد اختارت هذه القبائل حياة الاستقرار داخل المراكز الحضرية بشكل أثر على الخريطة السكانية لهذه المناطق.

لقد كانت كل مدينة كبيرة الحجم في بلاد الشام مستقلة تحت إدارة حاكمها العربي أو السلجوقي، وغالبا ماكانت كل منها تعادي الأخرى؛ فالعداء كان قائما بين الأمير رضوان (١٠٩٥ - ١١١٣م) حاكم حلب المتأثر بتعاليم الإسماعيلية، وأخيه الأمير دقاق (١٠٩٥ - ١١٠٤م) حاكم دمشق السني، وكان يشكل النغمة الدالة في تاريخ كل من الإمارتين إلى جانب القتال ضد الصليبيين. وكانت إمارة شيزر على نهر العاصي تحت حكم "بني منقذ" السنة قرب حماة إمارة عربية مستقلة، كما كانت طرابلس إمارة أخرى تحت حكم بني عمار^(٥) الشيعة. فإذا أدركنا أن مدن مناطق الحدود البيزنطية/ الشامية في الشمال تأرجحت بين السيادة البيزنطية و السيادة الإسلامية، اتضحت معالم صورة فوضوية للحالة السياسية في بلاد الشام وما نتج عنها بالضرورة من سيولة في التركيبة

وقد لعبت إمارة بني عمار دورا في الصراع السياسي في المنطقة قبل قدوم الصليبيين لايهمنا التعرض إلى تفاصيله في هذه الدراسة ، بيد أن تاريخها انتهى بالسقوط بأيدي القوات الصليبية سنة ٥٠٢ هجرية (١١٠٩م) ، أما إمارة شيزر فقد دمرها أحد الزلازل ثم صارت ضمن أملاك نور الدين محمود .^(٦١)

ويجدر بنا أن نشير في هذا السياق إلى حقيقة هامة مؤداها أن التشرذم السياسي الذي أصاب بلاد الشام قبل الحروب الصليبية ، وأثناء مراحلها الأولى ، إنما يعود في بعض أسبابه إلى أن القبائل العربية التي استوطنت مدن بلاد الشام وأقامت لنفسها إمارات فيها لم تتخل عن عصبيتها القبلية على الرغم من استيطانها للمدن وممارستها لحياة الحضر . لقد ظلت القبيلة / المدينة هي الوحدة الأساسية في التركيب السكاني لكثير من بلاد الشام ؛ وهو ما ترك أثرا واضحا على العلاقات السياسية والنشاط الاجتماعي / الاقتصادي في تلك الأنحاء . كما أن استيطان هذه القبائل لبعض مدن بلاد الشام لم يتحول إلى مواطنة ؛ أي أن مفهوم الوطن المرتبط بالأرض كان غائبا عن وعي أبناء القبائل العربية ؛ بل ظل الوطن مفهوما معنويا يرتبط بالقبيلة وعلاقات الدم والنسب أكثر منه بالأرض التي تسكنها .

وقد ساعدت مفاهيم هذه القبائل وميراثها الثقافي المرتبط بالوطن المتغير ، لكثرة الأتغال والتنقل أيام بداوتها ، على ترسيخ فكرة الولاء القبلي بدلا من المواطنة في هذه المدن .

ومن ناحية أخرى كان العرب هم العنصر الغالب في التركيب السكاني لبلاد الشام ولم يكن العنصر العربي ، في التركيبة السكانية لبلاد الشام ، قاصرا على سكان الإمارات العربية التي أشرنا إليها فقط ، وإنما كان يشكل النسبة الكبرى من سكان المنطقة عموما .

وعلى حافة الأراضي الزراعية ، وفي الصحراء ، عاشت جماعات البدو الرحل . فقد كان بنو طي يملأون المنطقة الممتدة بين مصر والمنطقة الجنوبية من بلاد الشام ، وفي شمال بلاد الشام كانت هناك بطون من قبائل كلاب ، وعقيل وغيرها من القبائل التي تنقلت بين الشام والعراق ؛ كذلك كانت هناك بطون بني طي من قضاة تسكن المنطقة شبه الصحراوية التي تمتد بين غزة ونابلس . وعلى الشاطئ الجنوبي كان البدو من بني غور وبني هيد يتجولون في المناطق الصحراوية القريبة من البحر . أما بنو عايد وبنو فهيد وبنو أبي فقد عاشوا في منطقة الجفر (وهي واحة بين مصر وفلسطين)^(٦٢) أما منطقة جنوب شرق الأردن ، فكانت مفضلة لدى البدو الذين كانوا يجردون سقوا مزدهرة لقطعانهم في سوق سهل الميدان في حوران بالقرب من المزيب . وفي سنة ١١١٥م تقريبا سكن بنو

رببعة هذه المناطق ، وتحولوا فيما بين البتراء وعجلون ^(٨) وبالقرب من قلعة الكرك الصليبية كان البدو من بني عقبة وبني زهير يتجولون بقطعاتهم في المنطقة . وبالقرب من عجلون كان بنو عوف الذين أعطوا اسمهم للهضبة الكبيرة في تلك الأنحاء . وفي هذه المنطقة اتصلوا ببني ربعة من بطون طي وخلفوا " بني الجراح " حكام فلسطين السابقين في القرنين العاشر والحادي عشر الذين تركز حكمهم في وسط فلسطين حول الرملة ، ووصلوا في ترحالهم حتى حوران . وكانت هناك قبائل أخرى ضربت مضاربها قرب منابع نهر الأردن في مرجعيون حيث المراعي الممتازة . ^(٩)

وإلى جانب العنصر العربي ، كانت هناك عناصر ضمن التركيب السكاني لبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية . وسوف نكتفي في هذا المقام بإشارات سريعة إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بدخول هذه العناصر إلى بلاد الشام .

كان الأتراك السلاجقة من أهم عناصر السكان غير العربية التي دخلت في التركيب السكاني لبلاد الشام . والسلاجقة ، في أصلهم ، شعب قبلي تكون من مجموعة القبائل الرعوية التركية التي عرفت باسم " الغز " (الأوغور) . وقد استمرت هجرات هذه القبائل طوال الفترة من القرن الثاني حتى القرن الرابع للهجرة (من الثامن إلى العاشر بعد الميلاد) . إذ دفعتها الظروف الاقتصادية ونقص الأقوات إلى الهجرة من أقاصي التركستان صوب إقليم ما وراء النهر وخراسان . ومنذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بدأ اسم السلاجقة يدخل صفحات تاريخ العالم الإسلامي . ^(١٠)

وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي ، ساعدت الظروف السياسية التي كانت الخلافة العباسية تتعرض لها ظهور قوة الأتراك السلاجقة بالشكل الذي أدى في نهاية الأمر إلى سيطرة السلاجقة على الخلافة نفسها في بغداد ^(١١) ثم أدت ظروف الصراع السياسي بين السلاجقة ، حماة العباسيين ، من جهة ، والدولة الفاطمية من جهة أخرى ، إلى دخول السلاجقة إلى بلاد الشام حيث انتزعوا لأنفسهم عدة مدن وإمارات ؛ أهمها مدينة بيت المقدس نفسها التي ظلت بحوزتهم حتى استردها الفاطميون ، في خضم أحداث الغزو الصليبي سنة ١٠٩٨ م .

ومن ناحية أخرى ، كان توسع السلاجقة شمالاً وغرباً على حساب البيزنطيين قد جعل الصدام بين الجانبين أمراً محتوماً . وفي معركة مانزكرت (ملاذكرد) سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧١ م) - أنزل السلطان السلجوقي ألب أرسلان هزيمة ساحقة بالامبراطور البيزنطي رومانوس ديجينيس ، ووقع الامبراطور نفسه أسيراً . ^(١٢) وهكذا بات الطريق مفتوحاً أمام الأتراك السلاجقة إلى القسطنطينية نفسها ؛ ولكن القادمين الجدد اهتموا أكثر بتوطيد أنفسهم في الأماكن التي استولوا عليها ، وكانت تلك بداية

الاستيطان التاريخي على نطاق واسع في تلك المناطق ، وبذلك دخلوا في تركيبة النسيج السكاني لبلاد الشام .

وإلى جانب العرب والأتراك كان الأكراد من أهم عناصر السكان في بلاد الشام آنذاك ؛ بل إن هناك حصنا يسمى " حصن الأكراد " ورد ذكره في مصادر تاريخ الحروب الصليبية ، اللاتينية منها والعربية ، على حد سواء . وقد أقيم ذلك الحصن على أنقاض قلعة قديمة بناها أحد أمراء حمص سنة ١٠٣١ ميلادية .^(١٣) ويبدو أن موجة من الأكراد قد وفدت إلى بلاد الشام أثناء حروب صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ثم تلتها موجة أخرى في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . وقد ذكر المؤرخ تقي الدين المقرئ بعض أخبار شيوخ هذه الطائفة ممن تركوا بلاد الشام واستقروا في مصر منذ القرن الرابع عشر والخامس عشر بعد الميلاد .^(١٤) ويبدو أن زعماء هذه الطائفة قد بلغوا حدا من النفوذ جعل سلاطين المماليك يهتمون بضمهم ولائهم .^(١٥) وفي إطار النظام الإقطاعي الذي قام عليه البناء السياسي لدول سلاطين المماليك في مصر والشام كان الأكراد يعتبرون من " أرباب السيوف " ممن لهم الحق في الحصول على الإقطاعات شأنهم شأن زعماء العرب والأتراك .^(١٦)

والدروز في بلاد الشام يمثلون أحد العناصر الهامة في التركيبة السكانية ، وقد عاشوا حياة اجتماعية مغلقة منطوية تحاشيا للمتعاب والاضطرابات ، وعلى الرغم من ذلك فإن المصادر التاريخية تذكر لهم دورا هاما في القتال ضد الصليبيين . وقد ذكر الرحالة الأندلسي اليهودي بنيامين التيطلي الذي زار بلاد الشام في القرن الثاني عشر أن الدروز كانوا يعيشون على مسافة حوالي عشرين ميلا من صيدا . ويبدو أن انطواء الدروز وحياتهم المغلقة جعلتهم نهبا للأقاويل والإشاعات ؛ فقد ذكر هذا الرحالة عنهم الكثير من الأخبار التي تدخل في باب المبالغة وذكر أن اليهود لا يقيمون في مناطق الدروز بشكل دائم على الرغم من العلاقات الطيبة بين الجانبين بسبب العلاقات التجارية .^(١٧)

وثمة أقليات أخرى عرفت بلاد الشام زمن الحروب الصليبية . وذكرها المؤرخون المعاصرون منذ وقت مبكر ؛ فقد تحدث فوشيه دي شارتير الذي رافق أحد جيوش الحملة الأولى عن جنسيات مختلفة .^(١٨) كذلك ذكر ويلبراند Wilbrand of Oldenburg سنة ١٢١٢م أن مدينة أنطاكية " بها سكان كثيرون أغنياء : الفرنج والسوريان ، واليونان واليهود ، والأرمن والمسلمون . . . " وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب ثيتمار Thietmar عن السكان اليونان واليعاقبة ، والجموحيين ، والأرمن والنسطوريين واليهود ، والسامرة ، والصدوقيين (ربما يقصد اليهود القرائين) والحشاشين وفي سنة ١٢٤١م كتب جيمس الفيتري عن عناصر السكان وأضاف إليهم الموارنة ، كما أن الرحالة بوركهارد Burchard of Mount Sion (١٢٨٣م) ذكر المسلمين والسوريان ، واليونان ، والأرمن ،

والجورجيين، والنسطوريين واليعاقبة، والميدين، والفرس، والأحباش، والمصريين... وكثيرين
غيرهم من المسيحيين. ^(١٩) كذلك فإن الرحالة اليهودي بنيامين التيطلي، الذي زار بيت المقدس
حوالي سنة ١١٦٧ م، يقول إن سكان بيت المقدس يتحدثون لغات مختلفة ويعتقون ديانات ومذاهب
مختلفة. ^(٢٠)

ويتضح من الفقرة السابقة أن التنوع على مستوى عناصر السكان في بلاد الشام كان يقابله
تنوع مماثلة على مستوى الديانة والمذهب؛ فقد سكن بلاد الشام المسلمون والمسيحيون واليهود
بطوائفهم المختلفة. وقد كان هؤلاء السكان موزعين بين المناطق التي استولى عليها الصليبيون، وتلك
التي بقيت بحوزة المسلمين من جهة، وبين المدن والمراكز الحضرية، ومناطق الريف والجبل من
جهة ثانية.

وفي تقدير بعض الباحثين أن سكان بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية كان حوالي مليونين
وسبعمائة ألف نسمة. ^(٢١) ويقدر الباحث نفسه كثافة السكان في المدن الكبرى ببلاد الشام، آنذاك،
بحوالي ١٢٥ نسمة لكل هكتار مربع. ويوضح الجدول التالي مساحة كل مدينة من المدن العشر
الكبرى، وعدد سكانها زمن الحروب الصليبية وفقا لتقديرات "رسل J.C. Russell". ^(٢٢)

المدينة	المساحة بالهكتار	عدد السكان
أنطاكية	٣٢٥	٤٠,٦٢٥
الرها	١٩٢	٢٤,٠٠٠
دمشق	١٢٠	١٥,٠٠٠
حلب	١١٢	١٤,٠٠٠
بيت المقدس	٨٠	١٠,٠٠٠
طرابلس	٨٠	٨,٠٠٠
حمص	٥٦	٧,٠٠٠
حماة	٥٤	٦,٧٥٠
غزة	٤٩	٦,١٢٥
عكا	٤٥	٥,٦٢٥

وعلى الرغم من أن هذه القائمة قد بنيت استنادا إلى قرائن ظنية ولم تعتمد على إحصائيات
دقيقة، ففي رأينا أن هذه الأعداد التي قدرها الباحث لسكان هذه المدن حوالي سنة ١٢٠٠ ميلادية

تبدو مقبولة في ضوء التخلخل السكاني الذي نجم عن مائة سنة من الحروب والحروب المضادة منذ دخول الصليبيين المنطقة في أواخر القرن الحادي عشر.

وهناك الكثير من المدن السورية والفلسطينية الشهيرة والقديمة لم تتضمنها هذه القائمة لصعوبة تقدير عدد سكانها أثناء فترة الحروب الصليبية ومن هذه المدن عسقلان وقنسرين والرملة وطبرية . وعلى الرغم من أن الرملة كانت كبيرة المساحة نسبياً (١٦٠ هكتار)؛ فإن الزلزال الذي ضربها سنة ١١٣٣م هدم حوالي ثلثها، كما أن صلاح الدين دمر تحصيناتها سنة ١١٨٧م حتى لا يفيد منها الصليبيون في حالة وقوعها بأيديهم مرة أخرى . كما كانت هناك مدن أخرى ذات شهرة تاريخية قديمة ولكنها تضاءلت في ذلك العصر؛ مثل صيدا التي كانت مساحتها تتراوح بين خمسة عشر وعشرين هكتاراً فقط ، على حين كانت مساحة قيصرية عشرة هكتارات فقط ، كما كانت المساحة المسورة في يافا تقترب من عشرة هكتارات . كما أن مدن الداخل انكمشت مساحة وتقلصت أعداد سكانها ، مثل بعلبك التي كانت زمن الحروب الصليبية مجرد قرية عربية صغيرة تبعثرت مساكن أهلها بين أطلال المدينة القديمة التي بلغت مساحتها أربعمائة هكتار .^(٢٣)

وربما كان من الصعب تقدير حجم المساحة المأهولة من بلاد الشام ، بسبب قرب الصحراء ، وبسبب الطبيعة الجبلية للأرض نفسها في بعض المناطق . ومن المحتمل أن المساحة المسكونة كانت تتراوح بين مائة ألف ومائة وعشرة آلاف كيلو متر مربع كانت تضم ستة عشر ألف قرية يتراوح سكانها بين مليون وسبعمائة ألف نسمة في أقل تقدير، وضعف هذا الرقم في أعلى تقدير .^(٢٤)

ويتضح مما سبق أن سكان بلاد الشام قد توزعوا ما بين المراكز الحضرية على الساحل وفي الداخل والمناطق الريفية والصحراوية والجبلية ، كما يظهر أن النسبة الكبرى من سكان بلاد الشام قد عاشوا خارج المدن . ومن ناحية أخرى فإن هذا الخليط السكاني المذهل في الشريط الممتد من تخوم قليقية في الشمال حتى البحر الأحمر في الجنوب بطول حوالي خمسمائة وثلاثين ميلاً ضم مجموعات سكانية مختلفة في أصولها العرقية ولغاتها ودياناتها ومذاهبها . ولكن الحقيقة التاريخية تكشف عن أولئك السكان - بصرف النظر عن خلفياتهم التاريخية - كانوا زمن الحروب الصليبية يمثلون كتلة إثنية ولغوية واحدة ، إذ كانت العربية لغة الجميع ، وتلاشت أهمية الاختلافات العرقية إلى حد كبير .

وليس من السهل أن نرسم صورة دقيقة للسكان المسلمين في الدويلات الصليبية . ففي غضون السنوات العشر التي أعقبت الغزو الصليبي اختفى العرب المسلمون ، أو كادوا ، من التركيبة السكانية في المدن الحصينة والقلاع التي استولى الصليبيون بسبب المذابح الرهيبة التي صحت نجاح كل حصار فرضه الصليبيون على مدن بلاد الشام ، وفي تلك المذابح الصليبية الشهيرة كان السكان

المسلمون واليهود والمسيحيون الشرفيون أحيانا (لأن مظهرهم الخارجي لم يكن يختلف عن الآخرين) يروحون ضحية الوحشية الصليبية المتعطشة للدماء،^(٢٥) ولم يبق المسلمون سوى في أماكن قليلة؛ مثل نابلس في فلسطين، التي استسلمت دون قتال. بل إن بعض المدن التي أعطى الصليبيون الأمان لأهلها، مثل صور سنة ١١٢٤م وعسقلان سنة ١١٥٣م، فضل سكانها أن يهجروها على العيش في كنف الفرنج.

ولكن حدث بعد ذلك - مع نمو الإمكانيات الاقتصادية واستقرار الأوضاع الأمنية في المدن الساحلية - أن عاد المسلمون للسكن في هذه المدن. كذلك هاجر البعض من المناطق الريفية إلى هذه المدن؛ بيد أننا لانعرف النسبة العامة، أو أرقام أولئك العائدين.^(٢٦)

ولا شك في أن الحميات التركية في شمال بلاد الشام، وفي داخل فلسطين، قد اختفت تماما في طيات الغزو الصليبي، كما حدث بالنسبة للحاميات الفاطمية، التي تألفت من الجند المرتزقة في المدن الساحلية.

وكان العنصر - سلم في التركيبة السكانية في شمال الشام أقوى منه في الجنوب ففي بيروت وصيدا، وفي سائر أنحاء مملكة بيت المقدس - باستثناء القدس نفسها - وجبلية في كونية طرابلس، وجبيل واللاذقية في إمارة أنطاكية، يبدو أن النسبة الغالبة من سكان المدن كانت من المسلمين على ما يبدو من مصادر تلك الفترة.^(٢٧) وربما كانت هناك نسبة كبيرة من المسلمين في المدن الساحلية والموانئ التي استولى عليها الصليبيون مثل أنطاكية وطرابلس وصور وعكا؛ ولكن لم يكن مسموحا للمسلمين بسكنى بيت المقدس بعد أن استولى عليها الصليبيون.

وعلى الرغم من أن المسلمين هجروا المدن إبان أحداث الغزو الصليبي فإنهم لم يتركوا مزارعهم وقراهم. حقيقة إن أعدادا من اللاجئين الفلسطينيين وصلوا دمشق ومصر فرارا من الغزو الصليبي، ولكن الغالبية من سكان الريف ظلت متمسكة بحقولها وقراها. وبعد فترة من العداء الصامت تجاه الصليبيين تجلت في رفض الفلاحين زراعة أرضهم،^(٢٨) حدث نوع من التعايش السلمي بين الفلاحين المسلمين والإقطاعيين الصليبيين. وفي بعض الأماكن هرب الفلاحون من أرضهم بسبب سوء معاملة الصليبيين وآثروا عدم زراعتها حتى لا يفيد منها هؤلاء.

وبدو لنا أن من المهم أن نشير في هذه الدراسة إلى بعض سمات التنوع السكاني لبلاد الشام على المستوى الديني والمذهبي. فقد سكنت بلاد الشام عناصر من المسلمين والمسيحيين واليهود

بطوائفهم المختلفة .

ومن أهم الطوائف الإسلامية كان السنة يشكلون غالبية سكان بلاد الشام في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) . وعلى الرغم من توزع السنة بين المذاهب الأربعة ؛ فقد كان المذهب الحنفي الأكثر شيوعاً على ما يبدو من عدد المدارس السنية التي خصصت لكل مذهب آنذاك . (٢٩)

أما الشيعة فقد سكنوا بعض مناطق بلاد الشام منذ فترة طويلة . وعلى الرغم من محاولات السلاجقة السنة القضاء على الشيعة ؛ فإنهم تمركزوا بشكل أساسي في المناطق الشمالية ، وكان للسيطرة الفاطمية على بعض مناطق الشام أثرها في انتشار المذهب الشيعي وقوته . وقد ذكر ابن جبير أن الشيعة في القرى المحيطة بدمشق أكثر من السنة . . . وقد عمروا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى : منهم أرافضة وهم السبابون ، ومنهم الإمامية والزيدية . . . ومنهم الإسماعيلية والتبصيرية ، ومنهم الغرابية . . . إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء . . . " (٣٠)

وقد لعب الإسماعيلية ، أو الباطنية ، دوراً هاماً في الحياة السياسية والاجتماعية لبلاد الشام زمن الحروب الصليبية . وكانت لهم آنذاك قلاع حصينة مثل المعرة وسلمية ومصيف . . . وغيرها . وقد ذكر الرحالة ابن جبير أن الإسماعيلية كانوا يسكنون في حصون في سمح جبل لبنان ، الذي كان الحد بين بلاد المسلمين والإفرنج " . (٣١) ومن هذه الحصون كانوا يشنون هجماتهم العنيفة ، بقصد الاغتيال ، ضد المسلمين السنة أحياناً ، أو ضد الصليبيين الذين تآرجحت علاقاتهم بهم بين التحالف والمعاداة . (٣٢) وقد ذكر الرحالة بنيامين التيطلي ، الذي زار بلاد الشام في عهد نور الدين محمود ، أن الحشاشين (الإسماعيلية) كانوا " . . . في صراع وحرب مع المسيحيين المعروفين باسم الفرنج ، ومع كونت طرابلس الشام . . . " (٣٣)

ولسنا بصدد تتبع تاريخ الإسماعيلية ، أو غيرها من فرق الشيعة في هذه الدراسة ، ولكن يهنا أن نشير إلى أن العداوة كانت شديدة بين نور الدين والحشاشين ، فقد كان نور الدين مهتماً بإعادة تثبيت المذهب السني عن طريق المدارس . وأظهر الإسماعيلية الشر ، على حين أخذ نور الدين يقضي عليهم في المناطق الخاضعة له . وقد ورث صلاح الدين الأيوبي عداوة الإسماعيلية وخطرهم في الوقت الذي كان عليه أن يقود حركة الجهاد ضد الصليبيين . ونفذ الإسماعيلية محاولتين لاغتياله . ولكن الصراع بين الطرفين انتهى بمعاهدة خضعت قلاع الإسماعيلية بمقتضاها لسيطرة صلاح الدين . (٣٤)

وعندما قامت دولة سلاطين المماليك في مصر ، وأظهر الباطنية عداوتهم لها ، تمكن السلطان

الظاهر ببيرس من القضاء عليهم على النحو الذي لم يتمكنوا بعده من العودة لسابق مكانتهم .

وإلى جانب المسلمين - بكافة مذاهبهم وفرقهم - كانت بلاد الشام موطنًا للنصارى واليهود بفرقهم المختلفة . ومنذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد في عصر الخليفة عمر بن الخطاب عاش هؤلاء وأولئك باعتبارهم من " أهل الذمة " وتمتعوا بحرياتهم الدينية والاجتماعية داخل الإطار الذي حددته النظرية السياسية الإسلامية التي تجعل حماية الأقليات من " أهل الذمة " داخل دار الإسلام واجباً على المسلمين مقابل الجزية التي كانت أشبه بضريبة الدفاع في المصطلح المعاصر .^(٣٥) وقد تمتع المسيحيون واليهود في بلاد الشام بحقوقهم ، باعتبارهم أهل ذمة ، ومارسوا حياتهم بشكل طبيعي . وكانت لهم أعيادهم ومناسباتهم ذات الطابع الاجتماعي العام .

ولا يمكن إثبات أن الأتراك السلاجقة قد اضطهدوا المسيحيين في بلاد الشام ، على نحو ما جاء في المصادر الغربية ، وما جاء في الخطبة المنسوبة إلى البابا أربان الثاني في كليرمون سنة ١٠٩٥ م .^(٣٦) فقد ظل المسيحيون يلقون نفس المعاملة التي تعودوها من المسلمين . أما ما حدث لهم أثناء الغزو السلجوقي نفسه ، فيمكن تفسيره باعتباره النتيجة الحتمية لظروف الحرب ، وهي نتيجة شعر بوطأتها كل سكان المناطق التي احترقت بلهيب الحرب . ومن ناحية أخرى . فإن الكنائس الشرقية الأخرى التي لم تكن تابعة للكنيسة البيزنطية ؛ مثل اليعاقبة والنساطرة الذين عانوا كثيراً من الاضطهاد البيزنطي ، لم يكن هناك سبب يدعو أتباعها للأسف على ما حدث . وحين ركزت البابوية وأبواق دعائيتها على موضوع الاضطهاد الذي حلت بالمسيحيين الشرقيين ، باعتباره ، سبباً لقيام الحملة الصليبية ،^(٣٧) فإن ذلك كان نتيجة عدم إدراكهم لحقيقة الموقف ؛ أو لأنهم كانوا يريدون إثارة حماسة المسيحيين الأوروبيين ونخوتهم .^(٣٨) ومن ناحية أخرى لم يكن المسيحيون المحليون - فيما عدا الموارنة - راغبين في التدخل في الصراع الدائر بين الصليبيين لقادسين من الغرب الكاثوليكي والعرب المسلمين . فقد كانوا أمنين على مكانتهم وعلى أرواحهم ، وليست لدينا أية وثائق تدل على أنهم طلبوا تدخل الغرب الكاثوليكي .^(٣٩)

وفي عصر الحروب الصليبية لم تتغير أحوال المسيحيين كثيراً ، وإن كانت هذه الحروب التي اتخذت من الدين شعاراً ، ومن الصليب رمزاً ، قد أوغرت الصدور وزرعت الشك في قلوب المسلمين تجاه المسيحيين . بيد أننا لا يجب ، من ناحية أخرى . أن نقلل من قيمة الحقيقة التاريخية القائلة بأن طوائف مسيحية عربية كثيرة عانت من الصليبيين مثلما عانى المسلمون واليهود في المذابح الصليبية الشهيرة ، بسبب زعيم المتشابه الذي يعبر عن أوضاع اجتماعية واحدة . كذلك فإن الصليبيين لم يقيموا أية علاقات ودية مع أية طائفة مسيحية شرقية باستثناء الموارنة في لبنان .^(٤٠) بل إن الروم

الأرثوذكس - أتباع الكنيسة اليونانية - كانوا هم واليعاقبة في حال من التوتر الدائم مع الصليبيين . فقد حول الصليبيون بطريركية الروم الأرثوذكس في القدس إلى بطريركية كاثوليكية غداة استيلائهم على المدينة المقدسة ، ولم تعد للروم وكنيستهم مكانة بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣ هجرية (١١٨٧ م) .

لقد تعددت طوائف المسيحيين في بلاد الشام . وكان أكثرهم اقتراباً من الصليبيين هم الموارنة الذين كانوا قد سكنوا جبل لبنان ووديانه . وعندما كانت جيوش الصليبيين تشق طريقها على ساحل بلاد الشام صوب القدس - هدف الرحلة النهائي - مروا بالمناطق التي سكنها الموارنة منذ وقت مبكر في تاريخ هذه البلاد . وقد زود الموارنة جيوش الغزاة بالأدلاء والمرشدين ، كما قدموا لمملكة بيت المقدس ، فيما بعد ، فرقة من الجنود رماة السهام .^(٤١) وكان الموارنة يشكلون في ذلك الحين أكبر طائفة مسيحية في لبنان . وقد ذكر وليم الصوري^(٤٢) أن الموارنة تخللوا عن هرطقتهم وانضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية . ولكن جيمس الفيتري ذكر بعد ذلك بحوالي ستين عاما (توفي ١٢٤٠ م) أنهم أتباع مارو Maro الذي وصمه بالهرطقة مما يعني أن اندماجها الذي أشار إليه وليم الصوري لم يحدث .

وقد حصل الموارنة على سائر امتيازات الصليبيين ؛ سواء الكنسية أو العلمانية . كما تمتعوا بالحقوق التي تتمتع بها سكان المدن الصليبية.^(٤٣) وعلى الرغم من ادعاء العلماء الموارنة بأنهم ظلوا مخلصين لمبادئ كنيستهم الأصلية ، تبقى الحقيقة التاريخية التي تكشف عن أن التقارب بين كنيسة روما الكاثوليكية والكنيسة المارونية بدأ في عصر الحروب الصليبية ليشهد باندماج الكنيسة المارونية في رابطة التبعية لروما .

أما أهم الجماعات المسيحية وأكبرها في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، فهي طائفة الروم الأرثوذكس التي تركزت قوتها في المقاطعات الشمالية ؛ ولا سيما في أنطاكية . وقد كانت هذه الطائفة قوية وثرية تحت الحكم الإسلامي أيضا ، وقبل الصليبيين . ومن المثير للسخرية أن الصليبيين الذين أقسموا على تحرير المسيحيين الشرقيين من نير المسلمين تحولوا بالنسبة لأتباع الكنائس الشرقية إلى مجموعة من قطاع الطرق واللصوص ؛ إذ كان تكريس كل كنيسة لاتينية تحت سماء بلاد الشام مقرونا على الدوام بدمار كنيسة شرقية .^(٤٤)

وكانت هناك طوائف مسيحية أخرى عديدة في بلاد الشام ، أهمها اليعاقبة الأرثوذكس أتباع مذهب الطبيعة الواحدة والموالين لكنيسة الإسكندرية ، والنساطرة ، والأرمن وغيرهم . ولم تكن علاقتهم بالصليبيين أحسن من علاقة الروم الأرثوذكس على الرغم من تحمس الأرمن للصليبيين على حساب المسلمين ، والنسطرة ، وحمما .

أما اليهود فإنه يستحيل معرفة أعدادهم بين السكان في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية . وكانت لليهود طوائفهم ؛ شأنهم شأن المسلمين والمسيحيين . فقد تركز السامرة حول مدينة نابلس وفيها ، وظلوا متمسكين بجبل جرزيم الذي يقدسونه ، كما عاش اليهود من طائفة القرائين في مناطق مختلفة من بلاد الشام ، وهذه الطائفة اجتمعت حول عقيدة بلورها داوود بن عنان - الذي تأثر بآراء المعتزلة - عندما كان يعيش في بغداد في القرن الثامن الميلادي . ويرفض القراؤون المشناة والتلمود ، ولا يؤمنون سوى بالتوراة (كتب موسى الخمسة) . أما اليهود الربانون (أو الربيون) فهم جمهور اليهود وأكثر فرقهم عددا . (٤٥)

وعلى أية حال ، فإن الوجود الصليبي كان وبالا على اليهود بجميع طوائفهم ، ربانين وقرائين وسامرة . فبعد أن استولى الصليبيون على مدينة بيت المقدس في نهاية الحملة الصليبية سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) انهزم بعض أهله إلى المحراب وقتل خلق كثيرين ، وجمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم (٤٦) وقد تعرض اليهود لنفس المذابح التي تعرض لها المسلمون في مناطق مثل أنطاكية ، وجبيل ، وبيروت . وقد لجأ من استطاع الهرب منهم إلى المناطق التي يسيطر عليها المسلمون . (٤٧)

لكن الأمور لم تستمر على هذا النحو مدة طويلة ؛ فبعد حوالي عشر سنوات تغيرت الأمور ولم تعد هناك تفرقة ضد اليهود باستثناء منعهم من دخول بيت المقدس مثل المسلمين . وظل الحال هكذا حتى استعاد صلاح الدين بيت المقدس وسمح لليهود بالعودة إليها . ولم يحدث أن عومل اليهود معاملة سيئة خاصة من جانب الصليبيين ، وإنما عوملوا بنفس معاملة الصليبيين لكل سكان بلاد الشام الأصليين . ويشكو المؤرخ الصليبي وليم الصوري - وهو رجل كنيسة في الأصل - من أن الأمراء الصليبيين يعالجون مرضاهم عند الأطباء المسلمين واليهود الذين يفضلونهم على الأطباء المسيحيين ، كما أن جيمس الفيتري يتهم الصليبيين بزيادة تسامحهم مع اليهود . (٤٨) لقد ازدهرت الحياة بين يهود المناطق التي احتلها الصليبيون ، على الرغم من أن الصليبيين عاملوا اليهود على أنهم أقل من الفرنج ، شأنهم شأن بقية السكان المحليين بصرف النظر عن ديانتهم .

وبعد استعادة المسلمين للمدينة المقدسة ، وتقلص اللون الصليبي على خريطة بلاد الشام ، بدأت هجرات اليهود تفد - خصوصا من دول المغرب الإسلامي ؛ لكي تعاود الجماعة اليهودية ازدهارها النسبي الذي كانت تنعم به في ظل الحكم الفاطمي .

وفي المناطق العربية الإسلامية عاش اليهود حياتهم العادية في إطار المفهوم القانوني لأهل الذمة ، وفي نطاق الموروث الاجتماعي / الثقافي السائد في هذه البلاد . وقد ذكر الرحالة اليهودي

الأندلسي بنيامين التيطلي، الذي زار بلاد الشام في عهد نور الدين محمود، عدة أرقام عن أعداد اليهود في مدن الشام، كما قدم لنا معلومات هامة عن الحرف والصناعات والمهن التي اشتغلوا بها. فقد ذكر أن يهود بيت لحم كانوا حوالي اثني عشر يهوديا من العاملين في مهنة الصباغة، وفي صرور أربعمائة يهودي يعملون في صناعة الزجاج الفاخر ويملك بعضهم السفن، وفي عكا حوالي مائتي يهودي. أما قيصرية؛ فقد ذكر أن بها عشرة من اليهود ومائتين من السامرة. وفي نابلس كان هناك مائة سامري وهم (سيناجوج) معبد على جبل جزر يم. وفي مدينة دمشق التي قال إنها مدينة كبيرة، كما أنها مدينة الحدود لمملكة نور الدين "ملك الأتراك" فقد كانت مقر رئيس الجماعة اليهودية من أتباع الأكاديمية الفلسطينية واسمه "الربي عزرا"، وقد أورد لنا بنيامين أسماء عدد كبير من أعيان طائفة اليهود الربانين في دمشق، وذكر أن عددهم قد بلغ مائتين، كما أن عدد السامرة بلغ حوالي أربعمائة نسمة.

أما حلب فقد عاش بها ألف وخمسمائة يهودي.^(٤٩) ويفهم من كلام بنيامين التيطلي أن يهود بلاد الشام، بطوائفهم الثلاث، قد عاشوا في ود ولكنهم لم يكونوا يقبلون الزواج من بعضهم بعضا.

ومن ناحية أخرى، فإن اليهود القرائين قد عانوا أكثر من غيرهم من الغزو الصليبي الذي دمر طائفتهم بشكل يكاد يكون تاما، وربما كان السبب في ذلك راجعا إلى أنهم كانوا يتركزون في المدن التي احتلها الصليبيون.

كذلك فإن دراسة أعداد اليهود، وتوزيعهم السكاني في بلاد الشام، مع مقارنة الحرف والمهن التي عملوا بها، داخل المناطق الإسلامية والمناطق التي استولى عليها الفرنج، تكشف عن أن حياة اليهود في المناطق العربية الإسلامية كانت تسير في إطارها المعتاد بحيث كانت أعدادهم أكبر، كما كانت مهنتهم أكثر رقيا وتنوعا.

وتكشف لنا الصفحات السابقة عن مدى تنوع عناصر التركيبة السكانية لبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، فضلا عن اختلاف وتعدد الفرق الدينية والمذهبية. والواقع أن أماكن قليلة للغاية في العالم يمكن أن تتشابه مع بلاد الشام من حيث وجود هذه التفسيرات السكانية بالشكل الذي جعل من أرض هذه البلاد معرضا تاريخيا حيا للعناصر السكانية والفرق الدينية والمذهبية على حد سواء. ولسنا بصدد التعرض للعوامل والظروف التي سببت هذا التنوع والخلط المذهل من عناصر السكان وطوائف الديانات والمذاهب؛ ولكن ما يهمنا هو تأثير هذا التنوع والتعدد على الحياة الاجتماعية في بلاد الشام. وهو تأثير سلبي على أي حال. فقد اتسم البناء الاجتماعي بالسهولة وعدم الثبات في معظم مناطق بلاد الشام، كما أن هذا التأثير جعل الاتساق والوحدة مفقودين في النشاط الاجتماعي.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن دراسة الحياة الاجتماعية في مظفة مثل بلاد الشام بشكل مبسط، أو وفق نموذج عام، أمر غاية في الصعوبة، ويكاد يدخل في باب المستحيل. وإذا أضفنا إلى عناصر التنوع والتعدد التاريخية، تلك الحركة التي خلفها الوجود الصليبي طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، أصبح الأمر أكثر صعوبة. ذلك أن هذه الدرجة من التنوع والتعدد المذهل في عناصر السكان؛ سواء من ناحية العنصر أو من ناحية الديانة والمذهب، قد خلق - بالضرورة - تنوعا في المفاهيم والثقافات الفرعية في مجتمع بلاد الشام آنذاك. فضلا عن أن التنوع التضاريسي والمناخي، من ناحية أخرى، قد ترك أثرا لا يستهان به في السلوك الاجتماعي.

ومن ثم، فإن أية محاولة لوضع نموذج عام للنشاط الاجتماعي، أو التركيب الطبقي، في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، سيؤدي بنا إلى متاهات تبعد بنا عن منطقة الحقيقة كثيرا.

على أنه من المهم أن نشير إلى أن صفة التنوع والتعدد التي ميزت التركيبة السكانية لم تقف حائلا دون أن تصبح اللغة العربية لغة الثقافة والفكر السائدة؛ بل ولغة التعامل اليومي حتى بين العناصر غير العربية من السكان. ولم يتبق للغة اليونانية، والسوريانية، واللهجات المحلية الأخرى (الأرمن، الجورجيون) غير الشئون الدينية، ومراسم الكنيسة أو التخاطب الداخلي داخل الطوائف. بل إن كثيرين من الصليبيين تعلموا اللغة العربية وأتقنوها.^(٥١) وهو أمر يتفق مع منطق الأمور بحكم التعامل اليومي والتعايش الذي فرض نفسه على الصليبيين والمسلمين جميعا. ومن أمثلة ذلك ما ذكره المؤرخ بهاء الدين بن شداد - كاتب سيرة صلاح الدين من أن أحد الأمراء الصليبيين، وهو رينو جارينيه أمير صيدا Renold Gornier of Sidon، كان من كبار الأفرنجية وعقلانها، وكان يعرف العربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث، وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه...^(٥٢)

ومن الطبيعي أن يستمر التركيب السكاني لبلاد الشام على حال من السهولة نتيجة الغزو الاستيطاني. فقد جرى تفرغ سكاني شامل لمدينة القدس من سكانها العرب واستوطنها الصليبيون، كما أن المذابح الرهيبة التي اشتهر بها الصليبيون جعلت قطاعات كبيرة من السكان يهربون إلى المناطق الخاضعة لحكم المسلمين.^(٥٣)

ومن ناحية أخرى، كان لسقوط مدينة بيت المقدس في أيدي الصليبيين أثره في تأجج الحماسة في صدور مسيحي أوروبا الكاثوليكية. وكان الناس في غرب أوروبا يستمعون في شغف إلى أحاديث الصليبيين العائدين، ولا بد أن أحاديثهم كانت تركز على حاجة المناطق التي احتلها الفرنج في بلاد الشام للرجال، والفرص المتاحة هناك. ومن لمبارديا وفرنسا وألمانيا، وغيرها من مناطق الغرب

الأوروبي، أخذت جماعات المغامرين والطامعين والمتدينين تشق طريقها صوب الشرق العربي الإسلامي. وعلى الرغم من أن الأعداد غير مؤكدة؛ فإن المصادر التاريخية توضح أن أعداد النازحين من غرب أوروبا - بعد نجاح الحملة الصليبية - كانت مساوية تقريبا لأعداد جيوش هذه الحملة. وتؤكد المصادر والدراسات الحديثة وجود أعداد كبيرة من النساء وغير المقاتلين في هذه الحملات مما يجعل هذه الحركة هجرة أكثر من كونها حملة عسكرية، وكان هذا الفيض من المهاجرين من غرب أوروبا المصدر الكبير لمصادر القوة البشرية التي كانت مملكة بيت المقدس الناشئة في أمس الحاجة إليها. ^(٥٣) وقد نتج عن هذه الحركة الاستيطانية الأوروبية عمليات تفريغ سكاني وسكن القادمون الجدد في مدن ومنازل المهاجرين الذين لجأوا إلى مناطق إسلامية.

هكذا كانت النتيجة المباشرة لنجاح الحملة الصليبية الأولى، وقيام مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى، انقسام بلاد الشام إلى مناطق عربية إسلامية، وأخرى صليبية. وقد اختلفت المساحة التي سيطر عليها الفرنج في فلسطين وبلاد الشام من فترة لأخرى حسب التطورات السياسية والعسكرية. ^(٥٤) وقد عاش الصليبيون على مقربة من المسلمين في معظم مناطق بلاد الشام، وفي بعض الأحوال كان هناك نوع من تداخل الحدود الذي فرض نمطا مؤقتا من أنماط التعايش السلمي بين الجانبين.

وقد عاش المسلمون في المدن والريف والصحراء، سواء في القطاع الإسلامي أو القطاع الصليبي. بيد أن الملاحظ أن نسبتهم كانت قليلة في المدن الصليبية الكبرى، على حين تزايدت أعدادهم في المراكز العمرانية الصغيرة. وعندما كان المسلمون يسكنون الأماكن التي سيطر عليها الصليبيون، كانوا يعانون من وطأة الضرائب الإضافية، ومن التعاسة التي تسببها لهم تسميتهم بالكلاب، أو «الكفار» في بعض الأحيان. وقد كان هذا الحال مماثلا لحال الفرنج الذين بقوا في المناطق التي استردها المسلمون في القرن الثاني عشر، سواء على يد جيوش زنكي أو نور الدين محمود، أو صلاح الدين الأيوبي.

وعلى السطح كان يبدو أن التعايش ممكن بين الجانبين وأن الحياة معتملة، وقد لاحظ أسامة بن منقذ أن كل «... من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقا من الذين تلبدوا وعاشروا المسلمين». ^(٥٥) ويقصد أسامة بكلمة «تلبدوا» أنهم قد عاشوا في البلاد فترة من الزمن.

ومن ناحية أخرى، فإن عددا من المسلمين قد عاشوا حياة الأمر لدى الصليبيين وقد تحدث أسامة بن منقذ عن عدة حالات لافتداء أسرى المسلمين من ربة الأسر لدى الصليبيين ^(٥٦) كذلك

حدثنا الرحالة المسلم ابن جبير عن الأسرى المسلمين في عكا فقال «ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسواقهن خلاخيل الحديد، فتفطر لهم الأفتدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئا. » (٥٧). وكان المسلمون الذين يزورون عكا، أو المقيمون بها من غير الأسرى يتصدقون عليهم. وقد كان هذا أيضا حال الفرنج الذين بقوا أسرى في بيت المقدس بعد أن استردها صلاح الدين (٥٨).

أما عن البناء الطبقي في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، فإن تحديد أية خطوط واضحة في بنية الطبقات في تلك البلاد يبدو لنا أمرا مستحيلا. ذلك أن تعدد أنماط العلاقات السياسية / الاجتماعية بين القبيلة، والمدينة / الدولة، ودولة الخلافة - يجعلنا نخشار في تحديد النمط الاجتماعي السائد، لقد كانت هناك إمارات بنيت على أساس قبلي، كما وجدت إمارات سلجوقية على أسس الإقطاع العسكري، الذي كان في بداية تطوره، ووجدت مناطق صحراوية رعوية، ومناطق جبلية عاشت فيها جماعات على أساس من العلاقات الطائفية والمذهبية، فضلا عن الجماعات العرقية المغلقة. وفي ظل هذا التنوع، الذي زاد من تعقيد توزيع الولاء السياسي بين الخلافة السنية في بغداد والخلافة الشيعية في القاهرة، والذي تفاقم بدخول الكيان الصليبي - نقول إنه في ظل هذا التنوع المربك والمثير يستحيل تصور بناء طبقي سائد في بلاد الشام آنذاك.

ومن ثم فإن السبيل الوحيد المتاح أمانا، أن نحاول تطبيق مقولة ابن خلدون - على الرغم من إدراكنا لطبيعتها المطاطية الواسعة - عن حكم سلاطين المماليك في مصر عندما قال إن الحكم في مصر آنذاك «سلطان ورعية» (٥٩).

والواقع أننا يمكن أن نسحب هذا الوصف على بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، فبغض النظر عن الحكم وطبيعتهم السياسية، وبصرف النظر عن التقلبات السياسية وتغير البيوت الحاكمة في خضم تفاعلات الصراع ضد الصليبيين، كان الناس في بلاد الشام حينذاك ينقسمون إلى طبقتين رئيسيتين (أيما كان الحاكم الذي خضعوا لسلطانه)، الطبقة الأولى طبقة أصحاب السلطان من الحكام ومن يدور في فلحهم من أبناء الشرائع الاجتماعية ذات العلاقة الخاصة بدوائر الحكم، والطبقة الثانية طبقة المحكومين الذين عملت جموعهم في حرف الزراعة والرعي والتجارة والصناعة بعيدا عن الحكام الذين لم تكن تربطهم بهم سوى المكوس والضرائب. وإذا كانت هناك بعض الجزر الاجتماعية ذات الطبيعة العرقية، أو الدينية، قد نظمت علاقاتها الاجتماعية وفقا لظروفها الخاصة، فإن هذا لا ينقض قيام القاعدة الأساسية وإنها يؤكدتها.

لقد كان الحكم في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية - بغض النظر عن اسم الدولة صاحبه السلطة - قائما على أساس طبقي حاد في علاقاته واتجاهاته، إقطاعي في مقوماته، عسكري في وظيفته. ومع تسليمنا بالفروق والمتغيرات التي حدثت في النظم المالية والإدارية نتيجة تغير الحكام، فإن هذه المتغيرات كانت هامشية ولكن الأساس الذي قام عليه الحكم، والفلسفة التي كانت توجهه، كانت في جوهرها تعبيرا عن خصائص النظام الإقطاعي العسكري الذي بلغ قمة تطوره في عصر سلاطين المماليك.

عاش الحكام عيشة بذخ وترف، وجمعوا حولهم الوجهاء والأعيان من أرباب السيوف وأرباب الأقاليم. واتخذوا لأنفسهم أعدادا كبيرة من المماليك والعبيد الوافدين من شتى أنحاء العالم المعروف آنذاك، وأجريت عليهم الرواتب والجرايات.^(٦٠)

وقد اهتم الحكام الذين تولوا حركة الجهاد ضد الصليبيين بإحياء المذهب السني مجددا، لاسيما بعد نهاية الخلافة الفاطمية في مصر والشام. وكانت النتيجة المنطقية أن قربوا منهم طائفة من كبار الفقهاء وأهل العمامة ليكونوا في خدمة أهدافهم السياسية والعسكرية، سواء بالقضاء على التشيع أو بتعبئة الرأي العام وراء الحكام الذين اكتسبوا شرعيتهم من قتال الصليبيين.^(٦١)

أما المحكومين، فقد كانوا من الفلاحين وعمامة أهل المدن من أصحاب الحرف والصناعات والتجار. وعلى الرغم من أن أحد الباحثين يقسم هذه الطبقة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية إلى ثلاثة أقسام رئيسية وثلاثة أقسام أخرى فرعية^(٦٢)، فإننا نرى أن خير تمثيل لسكان مدن بلاد الشام في ذلك الزمان هو قول ابن الأثير^(٦٣) . . . أخلاط من غوغاء ولقيف من أمم شتى وصناعات.

لقد كانت مدن بلاد الشام عبارة عن مدن مسورة تضم عدة آلاف من السكان الذين كانوا بدورهم انعكاساً للشراء التاريخي الذي ميز حركة السكان في بلاد الشام، فقد كانت العامة في تلك المدن مزيجاً من عناصر أصيلة وعناصر وافدة في فترات تاريخية مختلفة نتيجة للغزوات والحروب والتطورات السياسية التي مرت بها بلاد الشام. وهذا ما عبر عنه ابن الأثير بعبارة التي أوردناها في السطور السابقة. وكان هذا حال المدن الإسلامية والمدن التي استولى عليها الصليبيون على حد سواء.

وقد تميزت المدن بأسواقها التي وصفها لنا الرحالة المسلم ابن جبير في مواضع كثيرة من رحلته،

وفيه من كلامه أن معظم أسواق المدن كانت «... فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات اتساعاً وكبراً، وأعلى أسواقها مسقفة، وعلى هذا الترتيب معظم مدن هذه الجهات...» (٦٤) ذكر أن حلب تضم عدداً من الأسواق الكبيرة «... وكلها مسقف بالخشب» (٦٥) وفي حديثه عن مدينة حماة تحدث بكلام مشابه (٦٦)

ولكنه عندما تحدث عن حصص أشار إلى أن أسواقها كانت مقفرة تعاني من الركود بسبب قرب حصن الأكراد الذي اعتاد الصليبيون شن هجماتهم منه على المدينة (٦٧) وقد خص دمشق بوصف طويل ذكر في أثنائه بعض أسواقها وبعض حرف أهلها (٦٨)

ومن أهم المدن التي كانت بيد الصليبيين مدينة عكا التي كانت تموج بعناصر سكانية مختلطة من الصليبيين، وأبناء الطوائف المسيحية الشرقية، والمسلمين من شتى الأنماط، فضلاً عن أعداد متزايدة من محبي الاستطلاع والمغامرين الذين كان كثير منهم مصدر خطورة شديدة (٦٩) وقد وصفها ابن جبير بقوله: «هي قاعدة بلاد الإفرنج بالشام... مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطىء الأقدام، تستمر كفراً وطغياناً وتفور خنازير وصلباناً، زفرة قدرة...» (٧٠)

كان الصليبي القادم لتوّه من الغرب الأوربي يصاب بالحيرة والارتباك حين يرى المدن الصليبية تضم المسلمين والمسيحيين الشرقيين الذين يظهر مدى ارتباطهم بمواطنيهم المسلمين. كذلك كان على القادم الجديد أن يكون حريصاً يقظاً حتى لا تسرق منه نقوده في المدينة المزدهرة الصاخبة. وإذا لم يكن يملك من القوة البدنية ما يؤهله للانضمام لأحد الكونتات الصليبيين الطموحين، فربما يقع ضحية نصاب يبيع له بوابات المدينة، ثم ينضم لجموع العامة والغوغاء (٧١)

لقد كانت كثير من مدن الشام تعاني من مشكلة إسكان خطيرة مثل عكا. ويبدو أن البيوت البسيطة كانت تتكون من غرفة واحدة مبنية من الطوب اللبن، أما البيوت الأحسن قليلاً - والتي كانت تبنى من اللبن أيضاً - فكان بعضها يرتفع إلى دورين أو ثلاثة مثلما يذكر ابن جبير عن مدينة دمشق (٧٢). وعلى أية حال، فإننا لانملك أية وثائق عن ظروف الإسكان في هذه البلاد، كما لم يبق من مساكن ذلك الزمان سوى قصور الأثرياء الأكثر كلفة والمشيدة بالأحجار، فضلاً عن أن بنائها تعرض لكثير من التغييرات على مر القرون (٧٣)

ومن الطبيعي أن يعمل سكان المدن في شتى الحرف والصناعات التي عرفتها بلاد الشام في

ذلك الزمان . ولعل التجارة كانت أهم نشاط يمارسه سكان بلاد الشام ، وكانت الصناعة والزراعة تخدم التجارة إلى جانب إشباع حاجات الاستهلاك المحلي . وقد لعبت هذه البلاد دورا هاما في التجارة العالمية آنذاك .

لقد كان التأثير الاقتصادي للغزو الصليبي يلي في الأهمية النتائج السياسية التي خلفها في بلاد الشام . فقد كان للغزو أثره - السلبي بطبيعة الحال - عندما دمرت المعارك والحروب الممتلكات وأتلفت المحصولات . ولكن من ناحية أخرى يجب أن نتذكر أن دوافع أهل البندقية وجنوة وبيزا للاشتراك في الحملات الصليبية كانت دوافع تجارية بحتة .

وحتى ذلك الحين كانت التجارة بين أوروبا والشرق تسير في اتجاه واحد ، تقريبا ، لصالح الشرق ؛ إذ أن الغرب الأوروبي الإقطاعي لم يكن ينتج ما يبادل بالسلع الشرقية مما سبب نزيفا في رصيد أوروبا من الذهب كان يدفع في مقابل هذه السلع . بيد أن فترة الحروب الصليبية شهدت نموا في التداول التجاري . وأدى ذلك إلى توسيع تجار الشام من نطاق دورهم التقليدي في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب . ومن صور وعكا " . . . ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الأفاق " ، على حد تعبير ابن جبير،^(٧٤) نجد صورة تجارة عالمية مزدهرة .

وازدادت ثروات التجار المسلمين خاصة في المدن الداخلية بعد استقرار الأوضاع عقب الاضطراب الذي صاحب الحملة الأولى . وقد ذكر ابن جبير أن " . . . اختلاف القوافل من مضر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك . وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأمانة على غاية ، وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين ضريبة على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال . وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب."^(٧٥) لكن هذه الصورة لم تدم طويلا .

وفي رأي بعض الباحثين أن الحروب الصليبية نقلت اقتصاد بلاد الشام إلى مستوى عالمي لم تصل إليه منذ أيام الرومان .^(٧٦) وفي رأينا أن هذه مبالغة كبيرة لا تنسحب على كل بلاد الشام . حقيقة إن المدة التي كان للتجار الإيطاليين أحياء فيها قد ازدهرت ، بشكل مؤقت ، في القرن الثاني عشر ؛ ولكن كثيرا من المدن والمناطق الريفية اضمحلت بسبب أحداث الحرب وبسبب تبادل المسلمين والصليبيين الهجوم عليها . وقد أوردنا ما ذكره ابن جبير عن حصص وعن قسرين ، كذلك خربت كثير من المناطق الريفية .

أما على مستوى التجارة الداخلية ، فقد تولاها التجار المحليون من أصحاب الحوانيت وأرباب الأسواق . ويبدو أن تجار حلب كانوا أكثر تجار أهل الشام ثراء بسبب دورها في التجارة العالمية . كذلك كانت عكا في القطاع الصليبي . وكان التجار يفتحون حوانيتهم بعد الفجر ، ويستمرون فيها حتى هبوط الظلام . لكن هذا الوقت كله لم يكن للعمل وإنما كانوا يخصصون جزءا من وقتهم للأكل والتسلية مع رفاقهم . وكان أبناء الحرفة الواحدة يميلون للسكنى في منطقة واحدة ربما كانت تحمل اسم الحرفة (٧٧) ، ولم يكن أمرا شاذاً أن يشترك المسلمون والمسيحيون في مشروع تجاري أو صناعي واحد . (٧٨)

وعلى أية حال ، فإن ازدهار الحرف والصناعات والتجارة الداخلية في بلاد الشام كان أمرا مؤقتا ، إذ كانت الحروب المستمرة عامل اضطراب على المستوى الاجتماعي والاقتصادي مثلما كانت عامل اضطراب على المستوى السياسي . فقد شهد القرن الثاني عشر صراعات ومنازعات عديدة اتخذت طابعا دمويا ، واستمر الحال حتى طرد الصليبيون نهائيا سنة ١٢٩١ م .

لقد عرفت بلاد الشام ، في القرنين الثاني عشر والثالث ، عددا من الحرف والصناعات التي اكتسبت لنفسها شهرة تاريخية في العالم المعروف آنذاك . (٧٩) فقد اشتهرت صناعة الورق ، والسكر ، والزجاج ، والخزف ، والقيشاني ، وصناعة الأثاث والمشغولات الخشبية ؛ فضلا عن صناعة النسيج ، والعقاقير والعطور والخمور والنبذ ، وانتعشت هذه الحرف واكتسبت قوة إضافية حين فتحت أمامها أسواق جديدة . وتوسعت أسواقها القديمة بفضل نشاط الجاليات التجارية الإيطالية في مدن القطاع الصليبي . كذلك فإن صياغة الذهب والفضة ، وصناعات الحديد والأسلحة والجلود والصابون والسجاد ، انتعشت لفترة محدودة على نحو لم يسبق له مثيل إبان ازدهار الكيان الصليبي ، والهدوء النسبي الذي عرفه أهالي بلاد الشام بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة ، ثم هدوء الأحوال نسبيا في أخريات القرن الثاني عشر الميلادي .

أما المناطق الريفية في بلاد الشام ؛ فقد عانت أكثر من غيرها من الآثار السلبية للحروب الصليبية . ففي ظل الفاطميين والسلاجقة عاش الفلاحون حياة تقترب من القنبة في كثير من الأحوال نتيجة للعلاقة النهيبة التي كانت تربط أولئك الفلاحين بساداتهم من أصحاب الإقطاعات ، أو ممثلي الدولة . ولم تكن ظروف الفلاحين في مناطق الأتراك السلاجقة أحسن منها في المناطق الخاضعة للفاطميين . ومثال ذلك أن أتيسيز قائد قوات السلطان السلجوقي ألب أرسلان عندما استولى على دمشق سنة ٤٦٦ هجرية (١٠٧٦ م) كان يجبر الفلاحين على الزراعة ويستولي على ناتج الأرض .

وإذا كان الغزو الصليبي قد ترك آثاره السلبية على النشاط الزراعي بشكل عام وغير مباشر

نتيجة لكثرة الحروب والاستيلاء على المحاصيل أو تدمير الحقول؛ فإن أحوال الفلاحين الاجتماعية/الاقتصادية لم تتأثر بشكل مباشر إلا قليلا. وفي ظل الغزو الصليبي ظل حال الفلاحين قريبا كما كان عليه في ظل الحكام السلاجقة أو العرب أو الولاة الفاطميين. ففي الريف لم يكن ثمة فارق ملحوظ بين معاملة المالك العربي أو المالك الصليبي للفلاحين.^(٨٠) وقد حدثنا ابن جبير عن أن المسلمين والفرنج في منطقة زراعية قرب "بانياس" كانوا يتقاسمون غلة الأرض "فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهم فيها".^(٨١) ثم تحدث عن أحوال الفلاحين في تبين، وعلاقتهم بالصليبيين في عبارات تحمل دلالات لا يخطئها الباحث، فقال " . . . سكانها كلها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة، ذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عن أو ان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعملهم، لأنهم ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأس بعده".^(٨٢)

وفي تقديرنا أن السبب ليس عدل الصليبيين كما تصور ابن جبير، وإنما يمكن تفسير ذلك في ضوء حاجة الصليبيين إلى قوة عمل الفلاحين في المناطق التي كانت تحت سيطرتهم بسبب نقص مواردهم البشرية. بيد أن ما يهنا هنا هو أن نوضح أن أحوال الفلاحين لم تتأثر، بشكل مباشر، بالغزو الصليبي، على الرغم من أن التأثيرات غير المباشرة لهذا الغزو كانت فادحة ومدمرة في نهاية الأمر.

ومن ناحية أخرى فإن نور الدين محمود اهتم، بعد استيلائه على دمشق، بتنشيط الزراعة وتجديد وسائل الري وصيانتها. وفي تصورنا أن ذلك كان راجعا إلى اهتمامه بالأرض الزراعية باعتبارها عماد النظام الإقطاعي العسكري الذي قامت عليه دولته، وهو النظام الذي تطور في ظل الصراع العربي/الصليبي ليصل قمة تطوره في عصر سلاطين المماليك. وإذا كان النظام الإقطاعي العسكري يهتم بالأرض الزراعية وتحسين إنتاجها، فإن هذا لا يعني، بالضرورة، تحسن أحوال الفلاحين أنفسهم؛ إذ أنهم في ظل هذا النظام يعاملون باعتبارهم من أدوات الإنتاج. وإذا كان الإسلام يمنع استرقاق المسلمين، فإن وضعيتهم الشرعية كانت تدخلهم في عداد الأحرار. بيد أن الواقع التاريخي يكشف عن أنهم عاشوا حياة أقرب ما تكون إلى حياة الأفتان.^(٨٣)

وقد زادت الاضطرابات الناجمة عن الغزو الصليبي من متاعب الفلاحين الذين كانوا في مكانة أدنى من مكانة بقية العناصر السكانية في بلاد الشام . فقد كان وصول كل فوج جديد من الصليبيين يحمل معه مزيدا من المتاعب للفلاحين . إذ كان أولئك القادمون الجدد من الغرب الأوربي مدفوعين بحماستهم وتعصبهم الصليبي وطمعهم الدنيوي ، وكان الفلاحون فريستهم السهلة المنال يتلقون أولى ضربات الفرنج الوافدين دائما .^(٨٤) فقد كانت المناطق الريفية مفتوحة دائما أمام أي عدوان ، بعكس المدن التي نعمت بالحصون والقلاع والأسوار القوية .

لقد كانت الحروب المستمرة بسبب الوجود الصليبي سببا في إهدار قوة العمل البشري فغالبا ما كان الفلاحون يفضلون عدم زراعة أراضيهم بسبب خوفهم من نهب محصولاتهم أو تدميرها^(٨٥) وتسببت هذه الغارات في بوار مساحات كثيرة من الأرض الزراعية : فقد ذكر ابن جبير أن الطريق الذي مر به من حمص إلى دمشق كان مهجورا . . . قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة . . .^(٨٦) ومن الواضح أن هذه الحروب قد تسببت - في كثير من مناطق الناس - في انخفاض إنتاجية الأرض وهروب الفلاحين إلى المدن حيث يجدون الخبز والأمان .^(٨٧)

أما سكان الصحراء من البدو ، الذين ذكرنا بعض قبائلهم وتوزيعهم الجغرافي ، فقد عاشوا حياتهم وفق طريقتهم الخاصة . وعلى الرغم من أن البدو يمثلون مشكلة أمنية في بلاد الشام ؛ فإن الحكام عاملوا شيوخهم في غالب الأحوال معاملة أرباب السيوف ، وكنات مهمتهم تنحصر في حراسة طرق القوافل أحيانا ، أو القيام بدور يشبه دور قوات حرس الحدود أحيانا أخرى عندما تكون سلطة الدولة قوية . ولكن العربان في بلاد الشام ، كما كان الحال في مصر ، كثيرا ما كانوا مصدر متاعب جمة للحكام والمحكومين بسبب غاراتهم على المناطق الريفية وأطراف المدن ، والمسافرون وقوافل التجارة في بعض الأحيان ؛ وهو ما جعل الحكام - خصوصا في عصر سلاطين المماليك - يشنون الحرب عليهم ، ويطردونهم من منازلهم ، أو يقتلون زعماءهم .^(٨٨)

لقد شهدت بلاد الشام في القرن الثاني عشر منازعات سياسية وصراعات عسكرية أفرزت عددا من النتائج السلبية الخطيرة على الحياة الاجتماعية في بلاد الشام . فالنزاع بين المسلمين والصليبيين ، وبين السنة والشيعة ، وبين الخليفة السني والسلطان السلجوقي السني ، وبين الأمراء السنة في المراكز الحضرية ونظراتهم في المناطق الريفية أو الصحراوية ، وبين أبناء الأسر الملكية الطموحين ووزرائهم الطامعين ، وبين جماهير الناس - الذين كانت غالبيتهم من العرب - والعناصر الأجنبية ؛ وغالبهم من الأتراك . كل هذه المنازعات والصراعات والخصومات كانت مصدر اضطراب وخلل اجتماعي وأمني خطير^(٨٩) ؛ إذا كان أحدها يكفي لتعكير صفو الحياة العادية ، والإضرار

بالصالح العام للمجتمع . بيد أنها تكاثفت جميعا لتنتشر مظاهر انعدام الأمن ، وزيادة حدة الخروج على القانون ، وبروز اللصوصية والسطو وقطع الطريق . وتشير مذكرات أسامة بن منقذ إلى عصابات قطاع الطرق التي كانت تتمركز في المناطق المتاخمة للمراكز السكانية الحضرية مثل بعلبك وشيزر ونابلس .^(٩٠)

ومع ذلك فإن الحياة استمرت في سيرها ولم تتوقف ، وعادت الحياة تزدهر مرة أخرى في المناطق التي حررتها جيوش صلاح الدين ؛ فضلا عن الأماكن التي كانت بعيدة عن خطوط التماس . ولعل ملاحظات ابن جبير عن مدينة حمص التي تأثرت الحياة فيها بهجمات الصليبيين من حصن الأكراد ، والتي أشرنا إليها من قبل ، تفيدنا في توضيح هذا التناقض الذي قد يبدو في ازدهار بعض المناطق وتدهور البعض الآخر . فكلما كانت المنطقة منطقة حرب بين الطرفين كان التدهور السكاني والاجتماعي واضحا ، وكلما بعدت عن الحرب ازدهرت وعاشت بصورة أفضل . ومن ناحية أخرى ، فإن المناطق التي شهدت نوعا من التعايش السلمي بسبب الضرورات الاقتصادية ، مثل اقتسام المناطق المزروعة في بانياس قرب دمشق ، أو المحافظة على سلامة طرق التجارة وقوافلها مثلما كان الحال في عكا - هذه المناطق ازدهرت الحياة الاجتماعية فيها واستقر الأمن بخلاف المناطق الأخرى التي عانت من الآثار السلبية . ونخلص من هذا كله إلى أن محاولة وضع النموذج السائد تفشل مرة أخرى في توضيح الصورة .

أما العادات والتقاليد في بلاد الشام ، فإن الحديث عنها سوف يتخذ مسارين أساسيين ، تحكمها المعلومات المتاحة ، وهما : عادات وتقاليد المناطق الريفية .

ومن المهم أن نشير منذ البداية إلى أننا سوف نقدم نماذج نعرف سلفا أنها ليست نماذج سائدة ، كما تكشف لنا المصادر أن التنوع الذي وضع لنا في بنية التركيبة السكانية قد انعكس في أنساق القيم والعادات والتقاليد . ومن ثم فإننا سوف نهتم - قدر الإمكان - برصد الظواهر العامة ، مثل الأعياد الدينية والمناسبات ذات البعد الديني / الاجتماعي ، والعادات المرتبطة بالزواج ، والإنجاب ، والموت . فضلا عن الملابس وقائمة الطعام التي تركت تأثيرها الواضح على سلوك المستوطنين الصليبيين .

والأعياد الدينية تتخذ مظهرها اجتماعيا يكشف عن خطوط عامة في الحياة الاجتماعية . وفي تصورنا أن الاحتفال بالأعياد الدينية ، مثل حلول شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الضحية ، لم يكن يختلف كثيرا عن الاحتفالات في مصر . وربما كان هذا راجعا إلى حقيقة أن مصر وبلاد الشام كانت على اتصال دائم طوال تاريخهما الطويل . ومنذ الفتح الإسلامي كانت العناصر الثقافية في حال من الامتزاج والتفاعل بسبب عمليات النزوح السكاني المستمر بين البلدين .

أول هذه الأعياد عيد بداية السنة الهجرية الذي تمثلت أهم مظاهر الاحتفال به في خروج موكب يرأسه السلطان، أو نائبه، وفي هذا الاحتفال توزع الأطعمة والحلوى، ويتم سك عملات خاصة بهذه المناسبة في بعض الأحيان^(٩١) وقد تعود أهل مدينة حلب أن يكون فطورهم في هذا اليوم صنفا حلوا، كما اعتادوا أن يتصدقوا على الفقراء والمعوزين بنوع من البرغل المطبوخ، أطلقوا عليه اسما طريفا هو " فاز من صلى " نسبة إلى زجل كان الفقراء والمعوزون ينشدونه على أبواب المحسنين. ^(٩٢)

أما يوم عاشوراء، فهو يوم ذو مغزى خاص ومناسبة حزينة بالنسبة للشيعة الذين كانت أعدادهم وفرقهم الكثيرة تشكل قسما هاما من عناصر السكان في بلاد الشام. وفي العصر الفاطمي كان نائب الخليفة يمد " سباط الحزن "، وهي مائدة تتكون من طعام مثل العدس، والملوحات، والفطير، والمخللات والعسل. وعند الظهر يدخل الناس لتناول الطعام، وبعد الفراغ منه يبدأون في النواح حتى صلاة العصر. وفي هذا اليوم أيضا تعطل الأسواق وتغلق الحوانيت في البلاد حتى صلاة العصر. وحين دانت بلاد الشام لحكم الأيوبيين، الذين واصلوا سياسة إعادة المذهب السني في مصر والشام، تحول يوم عاشوراء في المناطق السنية إلى مناسبة سارة يتفق فيها الناس أموالا كثيرة لإدخال السرور على أهلهم وعيالهم. وفي هذا اليوم كانت تصنع الحلوى، وتكحل النساء، وتستخدم الأواني الجديدة. ويذهب الجميع إلى الحمامات. ^(٩٣) وقد استمر الاحتفال بيوم عاشوراء في المناطق الشيعية باعتباره مناسبة حزن.

وثمة عيد آخر خاص بالشيعة هو " عيد الغدير " الذي يبدأ الاحتفال به في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنويا. ويتم إحياء الليلة الأولى من هذا العيد بالصلاة، وفي صبيحة العيد يصلي الشيعة ركعتين، ويرتدون الملابس الجديدة، ويتصدقون ويكثرون من عمل الخير، ثم ينحرون عددا كبيرا من الذبائح.

أما الاحتفال بالمولد النبوي، فلم يكن الاحتفال به في بلاد الشام آنذاك ليختلف عما كان يحدث في مصر. ^(٩٤) إذ كانت تقام ولائم وحلقات الذكر، كما تضاء المساجد.

ومن البديهي أن شهر رمضان، بالنسبة للمسلمين جميعا، مناسبة دينية يمتد الاحتفال بها على مدى الشهر كله. وتبدأ مقدمات الاحتفال بشهر رمضان بتجديد طلاء المساجد، وزيادة قناديل الإضاءة وتجهيز الحصن بها. كما كانت أسواق الشاعين تعلن عن قرب قدوم الشهر من خلال تلك الأعداد الضخمة من الشموع (التي عرفت آنذاك باسم الفوانيس) التي كان أصحاب الحوانيت في تلك الأسواق يعلقونها على أبوابهم. وفي أثناء الشهر كانت الشموع الضخمة التي عرفت باسم

"الشموع الموكبية"، والتي قد تصل الواحدة منها إلى قطار وزنا، تخرج على عجلات، ويحيط بها الأولاد ويطوفون بها في شوارع المدينة وطرقاتها، وهم في الطريق إلى صلاة التراويح. وكذلك كان الأطفال يحملون فوانيسهم الصغيرة، وهم يهزجون بأغانيهم ويدقون أبواب المنازل في منطقتهم ليعطيهم الناس الحلوى والياميش^(٩٥)، وإلى جانب ذلك كانت موائد الناس ساعة الإفطار تحفل بشتى أنواع الطعام، ولاسيما المرطبات والحلوى التي كانت "الكنافة والقطايف" في مقدمتها.

أما السحور فكان يتم خلال تجاوب نداءات المؤذنين من فوق المآذن لتذكير النائمين عن طريق أشعار وأهازيج عامية على إيقاع الطبلية.

ولم يكن الاحتفال بالعيدين يختلف كثيرا عنه في أيامنا الحالية. ففي أول أيام عيد الفطر يخرج الناس لصلاة العيد، وبعدها يتوجهون لزيارة القبور. وفي نهار العيد تعم مظاهر الفرح ويجد الأطفال في نهارهم كثيرا من وسائل التسلية والمرح. أما عيد الأضحى، فيبدأ بالصلاة وذبح الأضحية، ويفرق الناس الصدقات ثم يبدأ تزاوهم واحتفالهم بالعيد.

كذلك كانت هناك عدة احتفالات ذات طابع اجتماعي، منها ما يتصل بالأسرة مثل: الزواج، والإنجاب، والختان، ودخول الأطفال إلى مكاتب الدراسة (الكتاتيب)، والموت... وما إلى ذلك.

وكانت سن الزواج للبنات تتراوح بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين. وفي مجتمع لم يكن يسمح بالاختلاط كانت «الخاطبة» تلعب دورا حيويا في إتمام الزيجات، نظرا لمعرفتها ببنات العائلات. وفي بعض الأحيان يقع الرجل ضحية لخداع الخاطبة التي سعت لزواجه^(٩٦). وعادة ما كانت نساء أسرة المستقبل تكثرن من التردد على منزل الفتاة المرشحة للزواج، بقصد التعرف عليها، واكتشاف محاسنها، واختبار مهارتها في إدارة شئون المنزل، ثم يذهبن معها إلى الحمام لرؤية جسمها وشعرها وشم رائحة فمها وعرقها وتحت إبطها. وتنتهي مهمة النساء بنقل انطباعاتهن إلى الراغب في الزواج وعميد عائلته^(٩٧).

وتتم الخطوبة بتشكيل مجموعة من الرجال، على رأسهم عميد أسرة الخاطب، يتوجهون لخطبة البنت من أهلها، ومعهم بعض معارف أسرة البنت. وتتم قراءة الفاتحة بعد الاتفاق على المهر. أما عند القران، فكان يتم في مسجد القرية أو المسجد الجامع في المدينة. وبعد عقد القران ينتقل الجميع إلى منزل العروس حيث يقام حفل يتناسب مع المستوى الاقتصادي، وفي كل الأحوال، كانت أكواب الشراب الحلو والحلوى توزع على المدعوين الذين يستمتعون بالموسيقى والغناء.

وعلى أسرة العروس أن تجهز أثاث منزل الروحية الذي ينقل في موكب بهيج تصحبه الموسيقى ويتقدمه الراقصون بالسيوف والعصي . وتسبق ليلة الزفاف ليلة عرفت «بليلة النقش» أي نقش قدمي العروس ويديها بالحناء ويتم إحياء هذه الليلة أيضا بالموسيقى والغناء . وفي ليلة الزفاف يستكمل «العريس زيته» في منزل أحد أصدقائه ، ثم يتوجه إلى منزله يتهادى بين شابين من رفاقه يشبهانه . ومع أنغام الموسيقى ، وعلى ضوء المصابيح الضخمة ، يتقدم المنشدون الموكب حتى منزل العروس التي يأخذ زوجها يدها ، ويدخلان إلى غرفتهما .

وفي صبيحة يوم الزفاف يتوجه الزوج إلى الحمام العام برقعة عدد من أصدقائه . وعلى مدى عدة أيام يكون ضيف الشرف على موائد أصدقائه فيما عرف في مصطلح ذلك الزمان باسم (الصباحيات) . وبعد أسبوعين من الزواج يقيم أهل الزوجة وليمة فاخرة زاخرة بكل أطيب الطعام .

أما في الريف ، فإن مظاهر الاحتفال كانت تتواضع عنها في المدينة . كما كان على الخاطب أن يقدم المهر إلى صهره قبل عقد القران . وبعد عقد القران كان أهل القرية يسارعون بتقديم الألفاف (النقود) إلى العروسين أو إلى والديهما . وفي أثناء موكب العروس في دروب القرية يلقي عليهما الناس زهور «العنصل» . ومن المهم أن نشير إلى أن القرويين من المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام كانوا يتضامنون في هذه المناسبات ، ويحاول كل طرف أن يقدم أفضل خدماته للطرف الآخر في هذه المناسبة .

وبالنسبة للبدو كان الزواج وسيلة لراحة الرجل ، ويقول أحد الباحثين إن ثراء البدوي في بلاد الشام آنذاك ، كان يحسب بعدد زوجاته وبناته اللاتي كن يتولين رعي الأغنام والجمال ، وجمع الأحطاب ، وزراعة الأرض أحيانا ، فضلا عن الأعمال المنزلية ونسج ملابس العائلة . (٩٨)

كانت المناسبة التي تلي الزواج في الأهمية ، استقبال مولود في الأسرة . وكانت مهمة التوليد قاصرة على النساء ، (٩٩) وتقوم بها القابلة . فإذا كان المولود ذكرا صلت القابلة على النبي ، وإذا كان بنتا ترضت على فاطمة الزهراء . ثم يتناول الطفل بعد ذلك أحد أقربائه المشهود لهم بالتدين والتقوى لكي يؤذن في أذنه الأذان الشرعي . ويعقب ذلك اختيار اسم المولود . وإذا كان ذكرا تضاعف فرح أهله به .

وتتلقي أم المولود طوال أسبوع هدايا كثيرة من أصناف الحلوى والسكر . وفي اليوم السابع يقام احتفال كبير ، وغالبا ما كان المطربون يقدمون أغانيهم للرجال في مكان خاص بهم ، على حين تقوم

المغنيات والراقصات بتقديم فنونهن في المكان المخصص للنساء . وقد جرت العادة على تقديم الألفاظ (النقود) لوالدي الطفل ، وهي متنوعة ما بين الملابس والحلي الذهبية والمأكولات . وبعد نهاية مدة النفاس تتوجه الأم إلى الحمام بصحبة عدد من النساء المقربات حيث تغتسل وترتدي الملابس المعينة الخاصة بهذه المناسبة .

وفي اليوم السابع أيضا يتم ختان الطفل في بعض الأحيان . ولكن بعض الناس كانوا يؤجلون الختان إلى سن الخامسة تقريبا . ويدعى إلى الحفل الأصدقاء والأقارب الذين تمد لهم مائدة خاصة . ويتم زفة الطفل على حصان صغير الحجم سريع الحركة (برذون) ، ويرتدي الطفل ثيابا جميلة ، ووراءه على نفس الدابة شخص هو العريف . ويطوف المركب ، الذي يضم بعض الصوفية ، والذي يتناسب حجمه مع مقتضى الحال إلى شوارع الحي في المدينة ، أو دروب القرية ، وفي النهاية يعودون إلى منزل الطفل حيث يقوم أحد المنشدين بإنشاد قصة المولد النبوي ، وعندئذ يتم ختان الطفل^(١٠٠) ويقدم المدعوون نقودهم من السمن والأرز والطيور والغلل والأغنام - حسب قدرة المدعوين ومكانة أهل الطفل في المجتمع . وكان من الواجب على أهل الطفل رد الهدايا في المناسبات المماثلة .

أما المآتم والأحزان ، فيبدو أن كثرة الحروب والمنازعات التي عانت منها بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، والذي دام قرابة قرنين من الزمان ، جعلت الحزن على الموتى في نفوس الناس أمرا عابرا . وقد وصف لنا ابن جبير ترتيب أهل دمشق في جنازتهم . فقال : «ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنازتهم رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجناز بقاء يقرأون القرآن بأصوات شجية ، وتلاحين مبكية . . . وجنازهم يصل عليها في الجامع قبالة المقصورة . . . فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها . . . وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن . . . ويجلسون أمامهم ربعات من القرآن يقرأونها . ونقباء الجناز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم . . . »^(١٠١)

ويتم العزاء بعد الدفن في منزل عميد الأسرة ، ويستمر ثلاثة أيام . وفي اليوم السابع وفي اليوم الأربعين يتم إحياء ذكرى الميت بقراءة القرآن وتوزيع الصدقات .

أما في الريف فكانت روح التضامن أكثر وضوحا ، ففي الليالي الثلاث الأولى عقب الوفاة يجتمع الرجال في مسجد القرية يكررون كلمة التوحيد وهم يعدون حبات مسبحة كبيرة تنتظم خمسةائة حبة . فإذا اكتملت بدأوا في قراءة القرآن . كذلك كانت مآتم النصارى تتشابه في شكلها الاجتماعي مع مآتم المسلمين على الرغم من اختلاف طقوسها بحكم اختلاف الدين . وفي القرى كان

النواح على الميت أمراً ضرورياً، ولكنه كان قاصراً على النساء لأن بكاء الرجال كان مسبباً وعاراً في تقدير أهل الشام.^(١٠٢)

لقد تعرضنا في الصفحات القليلة السابقة لبعض التقاليد المتعلقة بالاحتفالات الدينية/ الاجتماعية، والعادات المتعلقة بدورة الحياة - على حد تعبير علماء الاجتماع - من الولادة حتى الموت. ولا يعني هذا أننا قد عرضنا لكافة التقاليد والأعراف الاجتماعية، فهذه مسألة فوق طاقتنا. ولكننا أردنا بيان بعض التقاليد التي يمكن أن تكون سماتها المشتركة من خصائص ثقافة أهل الشام العامة - بغض النظر عن الاختلافات التي أشرنا إليها في بداية هذا البحث. ومن ناحية أخرى، فإن هناك من الأعراف والعادات المتنوعة ما يدخل تحت نطاق الخصائص الثقافية الفرعية لكل جماعة من عناصر التركيبة السكانية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية وليس من المفيد في هذه الدراسة أن نستغرق في متابعتها.

ولم يكن ممكناً بطبيعة الحال ألا يتأثر الصليبيون بالمووروثات الثقافية والتقاليد التي سادت الحياة الاجتماعية في بلاد الشام. لقد كان الصليبيون الذين وفدوا من أوروبا أبناء مجتمع مختلف يمر بمرحلة ما قبل النمو، وكان المجتمع الذي عاشوا في رحابه مجتمعاً متقدماً يبدو تقدمه في سائر أوجه الحياة اليومية. ومن ثم كان تأثير الحياة الاجتماعية في بلاد الشام على الكيان الصليبي فعالاً إلى حد كبير.

ومن المهم أن نشير إلى أن تقاليد الصليبيين المرتبطة بدورة الحياة، من ميلاد وزواج ووفاء، ظلت إلى حد كبير تحتفظ بخصائصها الأوربية. كما أن طبيعة العلاقات الأسرية، ومكانة المرأة في المجتمع كانت ما تزال هي نتاج الموروث الثقافي لهذه الجماعات الوافدة من الغرب الكاثوليكي، وقد أشار أسامة بن منقذ في عدة مواضع من مذكراته لهذا السلوك الاجتماعي الذي رآه معيباً. فقد ذكر أسامة ما نصه «ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقيه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى...»^(١٠٣) وقد ذكر أسامة عدة أمور أخرى لتأكيد رأيه في عدم نخوة الفرنج.^(١٠٤) والرأي عندني أن الفرنج كانوا يحملون خصائص ثقافية فوروثة لم يتخلوا عنها في بلاد الشام. كما أن الرحالة ابن جبير شاهد عرساً للصليبيين في مدينة صور، ووصف لنا الحفل وصفاً دقيقاً، فقال «... ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساءً، واصطفوا سباطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهاذى بين رجلين ينسكبانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أبهى زي وأفخر لباس تسحب

أذيان الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب وقد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبنتها مثل ذلك منتظم ، وهى رافلة في حليها وحللها ، تمشي قترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أآخر ثيابهم البهية ، تسحب أذيالهم خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرقل الحلي ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم . . . (١٠٥).

ويبدو من تحليل هذا المشهد ، الذي نقله لنا ابن جبير في نشوة واضحة ، أن تقاليد الزفاف كانت استمرارا لما هو سائد في أوروبا . حقيقة أنه من الواضح أن العرس الذي شهده ابن جبير في صور كان عرسا لقوم من الأثرياء على نحو ما يبدو من وصفه للعروس ، ولكن يبدو أيضا أن طراز الملابس كان تقليدا للنمط الأوروبي ولم يكن مثل ملابس العرب والمسلمين .

يبد أن هذا لا ينفي تأثير الصليبيين في جوانب أخرى هامة تتعلق بأساليب الحياة اليومية والتقاليد التي تحكمها . ذلك أن المصادر التاريخية المتاحة لدينا تكشف عن تأثيرات عربية وإسلامية واضحة جلية في حياة الصليبيين اليومية . ولدينا نص هام لفوشيه الشارترى يكشف عن أن الجيل الأول من الصليبيين قد تأثروا إلى حد كبير بالحياة الاجتماعية في بلاد الشام . يقول فوشيه :

« . . . إذ أننا نحن الغربيين صرنا الآن شرقيين ، فمن كان رومانيا أو فرنجيا قد صار في هذه الأرض من أهل الجليل أو فلسطين ، وذلك الذي كان من أهل ريمس أو شارتر أصبح من سكان أنطاكية أو صور . لقد نسينا بالفعل الأماكن التي شهدت مولدنا ، وصار أكثر هذه الأماكن مجهولا لنا أو لا يرد ذكرها على لسان . والبعض يمتلك فعلا مساكن ومنازل بالورثة . كما تزوج البعض من غير جنسهم من السوريات والأرمنيات ، أو حتى من المسلمات اللاتي اعتنقن المسيحية . وهناك من يعيش مع حميه ، أو مع زوجة ابنه ، أو طفله أو طفل زوجته ، أو زوج أمه . وهنا نجد الأحفاد وأبناء الأحفاد . والبعض يمتلك الكروم ، كما يملك البعض الآخر الحقول . ويستخدم الناس في حديثهم اليومي فصاحة وتعابير عدة لغات . فقد صارت الكلمات من شتى اللغات ملكية عامة يستخدمها كل أبناء الجنسيات المختلفة ، والديانة المشتركة توحد أولئك الذين يجهلون أصولهم . إن من ولد غريبا مثله الآن مثل من ولد هنا ، ومن ولد أجنبيا صار من أهل البلاد . ويلحق بنا أقاربنا وأبائنا وأمهاتنا من حين لآخر ، ويضحون بكل ما كان لديهم وأولئك الذين كانوا فقراء في الغرب ، أغناهم الرب في هذه الأرض . ومن كانت نفودهم قليلة هناك يمتلكون الآن أموالا لا تحصى . والذين لم يكن لديهم سكن هناك يمتلكون مدينة هنا بفضل الرب .

فلماذا يرجع المرء إذن إلى الغرب ؟ إذا كان قد وجد في الشرق مثل هذا النعيم . . . (١٠٦).

ويتضح من هذا النص المثير مدى تأثير الحياة في فلسطين وبلاد الشام على الفرنج الهاربين من جحيم الحياة في أوروبا آنذاك . لقد سكن الصليبيون في مساكن أصحاب الأرض التي احتلوها . وهو ما يعني أنهم بدأوا يستخدمون نمطا من المساكن لم يتعودوا عليه في بلادهم . لقد زار ابن جبير مدينة صور التي كانت تحت السيطرة الصليبية في القرن الثاني عشر . وقد لاحظ أن مساكنها - التي استولى عليها الصليبيون - كانت فسيحة واسعة على الطراز العربي الذي يناسب البيئة^(١٠٧) . كذلك يحكي أحد الأوروبيين الذين زاروا فلسطين آنذاك أن منازل بيت المقدس كانت عالية مشيدة من الحجر المربع ولها أسقف مسطحة تتجمع فيها مياه الأمطار ثم تحول إلى الخزانات نظرا لعدم وجود آبارا^(١٠٨) .

ويتضح من هذين المثالين أن الصليبيين قد خضعوا في سكنهم للمؤثرات البيئية ، ولم يكن ممكنا أن يشيدوا مساكنهم في المناطق التي احتلوها على النحو الذي ألفوه في بلادهم بغرب أوروبا والواقع أنهم لم يشيدوا أية مساكن ، وإنما استولوا على المساكن التي هجرها أصحابها ، بل إنهم استخدموا ما وجدوه بها من آثار . ومن ناحية أخرى فإن الصليبيين قد وفدوا من بلاد ريفية حيث كان الطابع الريفي غالبا على أوروبا ، وكانت المباني المعروفة لديهم تبنى من الأخشاب ومن دور واحد في غالب الأحوال^(١٠٩) .

وكانت أثاثات المنازل بسيطة للغاية ، وكان الصليبيون يقلدون المسلمين في الجلوس على البسط أو الحصر ، وليس على المقاعد أو الأرائك ، عند تناول الطعام . وقد كانت الموائد التي يستخدمها العرب عبارة عن أوانٍ ضخمة موضوعة فوق كرسي منخفض بالقدر الذي يتيح حركة سهلة للجالس على الأرض . وكان الصليبيون أيضا يستخدمون هذه الموائد^(١١٠) وكانت الأطباق والأوعية تصنع من الخشب ، وربما كانت الأواني والأطباق تصنع من الفخار أيضا مثلما اعتاد أهل البلاد الأصليين^(١١١) كذلك حدثنا جيمس الفيتري عن الأسرة الخشبية والخزائن التي كانت تحفظ فيها الملابس وغيرها من الأشياء . كما كان بعضها عبارة عن تجويف في الحائط ، وتستخدم كخزانة كتب أيضا^(١١٢) .

وخارج المنزل استمتع الصليبيون بالذهاب إلى الحمامات العامة للاستحمام ونظافة أجسادهم . وقد وصف لنا الرحالة ابن جبير دمشق فذكر لنا أن بها حوالي مائة حمام^(١١٣) وهوما يدل على مدى انتشار هذه الحمامات في بلاد الشام . وقد تأثر الفرنج بالعرب والمسلمين في استخدام الحمامات العامة بشكل استفز جيمس الفيتري الأسقف القادم من أوروبا الحديثة ، وعاب على الصليبيين أنهم باتوا معتادين على الحمامات والثياب الناعمة . وزاد من حنقه أن "لعنة" الذهاب إلى الحمام للنظافة قد

أصابته الرهبان والراهبات أيضا^(١١١). كذلك أخبرنا أسامة بن منقذ في مذكراته عن بعض مظاهر استمتاع الصليبيين بالحمام الشرقي لدرجة أن بعضهم كان يذهب إلى الحمام ثلاث مرات أسبوعيا ، كما حكى عن بعض أمثلة كان الفرنج يذهبون إلى الحمام مع نسايتهم في موضع واحد^(١١٥).

كذلك فإن ألعاب التسلية وتزجية أوقات الفراغ المعروفة في بلاد الشام في تلك الفترة صارت محبة لدى الصليبيين ؛ لقد أقبلوا على لعب الشطرنج وغيره من ألعاب التسلية ، وكذلك مارس الصليبيون صيد الضواري التي كانت من أكثر الرياضات انتشارا بين الفرسان المسلمين في بلاد الشام . وقد أفرد أسامة بن منقذ فصلا في كتابه عن الصيد وحكاياته التي كان بعضها مع الصليبيين^(١١٦).

ومن ناحية أخرى ، استخدم الصليبيون أنواع المنسوجات والأقمشة الفاخرة التي اشتهرت بها بلاد الشام في تلك الفترة من تاريخها . بيد أن طراز الملابس وطريقة تفصيلها كانت توافق ما هو سائد في أوروبا آنذاك كما يتضح من كلام ابن جبير السابق عن حفل الزفاف الذي شاهده في صور ووصف ملابس المشاركين فيه بكلمات يفهم منها أن طراز ملابس الفرنج كان مغالفا لما كان شائعا لدى العرب والمسلمين . لقد كانت ملابس الفرسان الصليبيين تتميز بالفخامة ، وكانوا يحيطون رؤوسهم بتيجان الورود ، ولم يكونوا محتئين كما وصفهم جيمس الفيتري^(١١٧) ولكنهم كانوا متأنقين للغاية . وقد تأثروا كثيرا بالجو العربي الإسلامي الذي كانوا يعيشون في رحابه .

ومن المفترض أيضا أن النساء الفرنجيات أيضا كن يرتدين ملابس توافق الطرز الأوروبية ، ولكن نوعية القماش كانت تختلف ؛ إذ كن يستخدمن المنسوجات الفاخرة ذات الألوان البهيجة التي شاعت في الشرق^(١١٨) . وقد اعتاد المستوطنون الفرنج في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية أن يسيروا ورؤوسهم عارية ، وقد حلقوا ذقونهم وشواربهم ، على حين اعتاد المسلمون والمسيحيون الشرقيون تغطية رؤوسهم بما يقيها حرارة الجو ، ولم يكونوا يخلقون لحاهم^(١١٩).

وفي رأينا أن تمسك الصليبيين بطرز الملابس الأوروبية ، واتباع " الموضة " فيما يتعلق بالشكل الشخصي (الذقن - والشارب - والشعر) كان انعكاسا نفسيا تلقائيا لإحساسهم بالغربة الحضارية في هذه المنطقة التي تشبه محيطا بشريا عدائيا يحيطهم من كل اتجاه . بيد أن عناصر الاتصال الحضاري جعلت تأثرهم بالمحيط العام أمرا حتميا تجلت مظاهره في عدة نواح .

وفي بعض الأحيان لعب الأطباء دورا في التأثير المتبادل بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام ، وقد ذكر أسامة بعض الأمثلة في هذا السيل ؛ منها أن أميرا صليبيا طلب من عم أسامة أن

يرسل له طبيباً لعلاج بعض المرضى فأرسل له طبيباً مسيحياً اسمه "ثابت" (١٢٠) وقد شهد أسامة ببراعة بعضهم في استخدام وسائل الطب البدائية (١٢١) وتحدث عن جهل البعض الآخر (١٢٢). كما أن الملك عموري (أماريك) تأثر بمهارة طبيب عربي أثناء زيارته إلى مصر وهو "سليمان" لدرجة أنه طلب من الخليفة الفاطمي أن يأذن له بالرحيل إلى القدس ليكون طبيب البلاط الصليبي ، ورجل الرجل بالفعل في صحبة الملك الصليبي (١٢٣).

لقد كان كثيرون من الصليبيين يفضلون قائمة الطعام المحلية ، التي كان تنوعها و ثراؤها دليلاً على مدى تقدم المجتمع ، عن قائمة الطعام الفقيرة التي عرفوها في بلادهم . وقد حكى لنا أسامة بن منقذ أن أحد أصحابه ذهب إلى أنطاكية لقضاء مهمة ما . وأكل عند أحد الصليبيين الذي قال له " . . . كل طيب النفس . فأنما آكل من طعام الإفرنج . ولي طبابخات مصريات ما آكل إلا من طبيخنهن ، ولا يدخل داري لحم الخنزير " (١٢٤).

وكانت الفروسية حلقة أخرى من حلقات التفاعل الاجتماعي والاتصال الثقافي . ومن ينظر في مذكرات أسامة بن منقذ يجد أمثلة كثيرة على هذا التفاعل ، والذي كان هو نفسه مثالا جيدا - وإن لم يكن مثالا وحيدا - على هذا الاتصال والتفاعل .

وعلى الرغم من حاجز الدين واللغة ؛ فإن الثابت أن كثيرين من الصليبيين قد أجادوا اللغة العربية بحكم وجودهم في هذه المنطقة وضرورة تعاملهم بهذه اللغة في حياة كل يوم ؛ لقد ذكر ابن جبير أن رجال الجمارك في عكا " . . . يكتبون بالعربية ويتكلمون بها . . . " (١٢٥) وعلى مستوى الدراسة والعلم نعرف أن وليم الصوري ، الذي كان يعرف اللغة العربية ويجيدها تماما ، قد استخدم نصوصا تاريخية وأدبية وعربية في كتابه المشهور (١٢٦) وثمة رجل من بيزا ترجم في أنطاكية سنة ١١٢٧ م كتابا في الطب عنوانه " الطب الملكي " لعلي بن عباس المتوفى سنة ٩٩٤ ميلادية إلى اللغة اللاتينية ، وهذا الكتاب هو النص العلمي الوحيد الذي نعرف أنه نقل إلى اللاتينية خلال فترة الحروب الصليبية

كذلك كان زعماء فرسان الإستبارية والداوية ، وكبار موظفي البلاط في مملكة بيت المقدس يعرفون اللغة العربية . وكان رينالد دي شاتيلون (أرنات) Reginald de Chatillon حاكم إمارة الكرك المشاغب ، يتكلم اللغة العربية بسهولة . ويحكى لنا ابن شداد ، كاتب سيرة صلاح الدين أن السلطان المسلم زاره الأمير الصليبي رينولد جارنييه Reynold Garnier صاحب صيدا شقيف أرنون ، طلبا للسلامة بعد أن رأى تجمع جيوش صلاح الدين أمام قلعة شقيف أرنون سنة ٥٨٠ هجرية . وقد ذكر ابن شداد أن الرجل الذي زار السلطان كان يعرف العربية (١٢٨) كذلك يحدثنا جوائفيل ، الذي رافق لويس التاسع في حملته الفاشلة على مصر ، عن أن بعض رفاقه كانوا يعرفون العربية (١٢٩) ومن الطبيعي

أن يكون الصليبيون من أبناء الجيل الثاني والجيل الثالث هم الذين تأثروا بالأدب العربي والثقافة العربية أكثر من جيل الغزو، لأنهم كانوا يجيدون العربية قراءة وكتابة ويعرفونها أحسن من اللغات المحلية في أوطانهم الأوربية. (١٣٠)

وليس بوسعنا متابعة كافة نواحي التأثير العربي الإسلامي على المستوطنين الصليبيين؛ لكن ما نود التأكيد عليه هو أن تأثير الحياة الاجتماعية على الوجود الصليبي في بلاد الشام كان واضحا وملموسا إلى حد بعيد. فحين استقر الصليبيون في هذه البلاد اكتشفوا أنهم لكي يعيشوا ويتاجروا في الشرق العربي الإسلامي، فلا بد لهم أن يأخذوا بأساليب الحياة الشرقية إلى حد ما. لقد كان الصليبيون الأوائل يبدون امتعاضهم من وجود حي للمسلمين ومسجد يصلون فيه داخل مدينة القسطنطينية، ولكنهم بعد أن استقروا في فلسطين سمحوا ببقاء مساجد المسلمين داخل المدن والمناطق التي احتلوها على نحو ما يشير ابن جبير في حديثه عن عكا وصور. لقد وجدوا أنفسهم في بيئة عربية إسلامية تحيط بهم المساجد، وبين قوم يعتقدون في إله واحد حقا، لكنهم لا يؤمنون بالوهية المسيح. واكتشفوا أن المسلمين قوم يحسنون السلوك، وأساليب حياتهم أكثر رقا مما ألفوه في أوروبا، كما أن حياتهم أكثر عقلانية من حياة الغرب الأوربي.

وفي غمار الاتصال اليومي، والاحتكاك الثقافي والاجتماعي، كان الغزاة هم المهزومين، فقد تعلموا الكثير من العرب والمسلمين، وتأثروا بالعديد من مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام.

هذه الخطوط العريضة التي حاولنا بها أن نرسم صورة عامة، بقدر الإمكان، لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، تكشف عن عدة أمور هامة:

- (١) أن التنوع السكاني في بلاد الشام كان بمثابة تعبير عن تاريخ هذه المنطقة الممتد في أغوار الزمن، كما كان في الوقت نفسه سببا في سيولة التركيبة الاجتماعية على نحو يجعل من دراستها وفق إطار واحد أمرا بالغ الصعوبة. وقد زادت ظروف الحروب الصليبية من درجة هذه السيولة بسبب ما نتج عنها من عمليات الهجرة والتهجير، وتحول الأغلبية إلى أقلية في بعض المناطق، ودخول عناصر جديدة في البنية السكانية في مناطق أخرى.
- (٢) أن تعدد الديانات والمذاهب كرس الطائفية التي تمثلت في عزلة بعض أتباع المذاهب، أو عدوانيتهم، أو تعاونهم الحميم مع الصليبيين. وقد أدى هذا الموقف إلى مزيد من التعقيد والسيولة في الفسيفساء السكانية التي جعلت بلاد الشام تبدو كما لو كانت معرضا لتاريخ الأجناس والديانات، وهو ما ينعكس سلبيا على أية محاولة لدراسة المجتمع على أساس طبقي،

-
- أو على أساس من دراسة التقاليد والأنساق الثقافية .
- (٣) أن اللغة العربية كانت عامل توحيد ثقافي هام جعل كل هذه المجموعات العرقية والدينية تدخل في النسيج العام لثقافة بلاد الشام . على الرغم من خصوصية العناصر الثقافية داخل كل جماعة من هذه الجماعات .
- (٤) هذا التباين الذي ميز بلاد الشام صادفه تمايز آخر في التأثيرات الاقتصادية / الاجتماعية للغزوالصليبي ؛ فبينما ازدهرت بعض مناطق الساحل بسبب نمو النشاط التجاري على أيدي الأحياء الإيطالية في المدن الصليبية ، وبينما ازدهرت بعض الحرف والصناعات التقليدية بسبب الأسواق الجديدة التي فتحت أمام منتجاتها ، عانت بعض المناطق الريفية في مناطق التماس والاحتكاك بين المسلمين والصليبيين من الآثار السلبية للغزو الصليبي . كذلك حرص المسلمون والصليبيون على ازدهار الزراعة في المناطق الخاضعة لهم بعيدا عن غارات الطرف الآخر .
- (٥) نتيجة هذا كله كان من الصعب رصد التقاليد والأعراف الاجتماعية رصدًا دقيقًا في كافة أنحاء بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، اللهم سوى فيما يتعلق بالأعياد الدينية ، والتقاليد المرتبطة بدورة الحياة التي كانت متشابهة في خطوطها العامة ، وإن اختلفت تفصيلاتها الدقيقة من منطقة لأخرى .
- (٦) حين عاش الصليبيون في بلاد الشام ، كان تأثيرهم بالجو المحيط بهم أمرا حتميا وتجلى ذلك التأثير في حياتهم اليومية وسلوكياتهم على الرغم من تمسكهم ببعض مظاهر تؤكد انتسابهم لثقافة وحضارة المجتمعات البعيدة التي وفدوا منها .
-

هوامش وتعليقات :

(١) أبو الحارث أرسلان الباسيري أحد قواد بني بوية الأتراك العاملين في خدمة الدولة العباسية وقد حاول تدبير انقلاب شيعي لصالح الخليفة الفاطمي - أنظر : محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية (القاهرة ١٩٦٧) ص ١٨٥ - ص ٢٠٦ .

(٢) عن تفاصيل تقدم جيوش الحملة الصليبية حتى الاستيلاء على مدينة بيت المقدس أنظر :
Fulcher of Chartres, A history of the expedition to Jerusalem-1095-1127, (edited by Harold S. Fink, Knoxville 1969) pp. 74-101; Anonymous, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitarum - The deeds of the Franks and other Pilgrims to Jerusalem, (edited and translated by Rosalind Hill, London 1962), pp. 56-82.

أنظر أيضا : قاسم عبده قاسم ، الخلفية الأيديولوجية للحرب الصليبية (الطبعة الثانية ، الكويت ١٩٨٨ م) ص ١٧٩ - ص ٢١٦

(٣) عن أحداث الرها أنظر :
عليه عبدالسميع الجنزوري ، إمارة الرها لصليبية ، (القاهرة ١٩٧٥ م) ص ٢٦٠ - ص ٣٠٨ .
(٤) كان رد الفعل الأوروبي لسقوط الرها أن تم تجريد حملة صليبية جديدة عرفت باسم الحملة الصليبية الثانية - لاستعادة الرها من المسلمين ، وكانت هذه الحملة فشلا كاملا بسبب الخلاف بين قوات الحملة وقوادها من جهة والمستوطنين الصليبيين من جهة ثانية ، وانتهت باتهام لويس السابع ملك فرنسا لزوجته بخيانتها مع أحد ضباطه - أما على المستوى العسكري فإنها إنتهت إلى هجوم غير مبرر على دمشق بدلا من التوجه نحو الرها ، وتبادل الصليبيون الاتهامات ، وفشلت الحملة .

(٥) Philip Khuri Hitti, "The impact of the Crusades on the Muslim Lands", in Kenneth M. Setton (ed.), A History of the Crusades, vol. V, (edited by : Norman P. Zacour and Harry W. Hazard, the University of Wisconsin Press, 1985), p. 33.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٣٥
(٧) ذكر أسامة بن منقذ أنه أثناء مهمة له خرج من مصر حتى لقي بعض العربان في الجفر وعرف منهم أنهم من بني أبي... وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون إلا الميتة ، ويقولون : نحن خير العرب مافينا مجذوم ولا أبرص ، ولا زمن ، ولا أعمى - أنظر : كتاب الاعتبار (تحقيق ، فيليب حتى ، برنستون الولايات المتحدة ، ١٩٣٠) ، ص ١١ - ص ١٢ .

(٨) Joshua Prawer, "Social classes in the crusader states: the "Minorities" in Setton (ed.), A hist. of the Crusades, vol. V, pp. 63 -64.
Ibid, p. 65.

(٩)

(١٠) عبد النعيم حسنين - سلاجقة إيران والعراق (ط - ثانية ، النهضة المصرية ، ١٩٧٠) ، ص ١٦ وما بعدها .

(١١) لمزيد من التفاصيل أنظر :

Claude Cahen, "The Turkish Invasion: The Selchukis", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 135 - 76.

(١٢) عن معركة مانزكرت أنظر :

Michel Psellus Chronographia, ou, Histoire d'un siecle de Byzance (976-1077), texte etabli et traduit par Emile Renaud, (Paris 1926), tom. II, pp. 159-172. Michel le Syrien Chroniques de Michel Patriarch d'Antioch (1166-1999), editee et traduite par: J.B. Chabot, (Paris 1890-1910), tom. III, pp. 168-171; Claude Cahen, op. cit., pp. 147-49.

أنظر أيضا :

- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٦٥ - ٦٧ : ابن العبري تاريخ مختصر الدول ، ص ١٨٥ .
(١٣) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (القاهرة ، ١٩٧٧) ، ص ٥٥ .
(١٤) المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٤٣٥ .
(١٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

R. Hassanien, The financial System of Egypt, (London 1972), pp. 26-ff. (١٦)

The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, ed. and trans. Marcus N. Adler, (2 vols. London 1907), (١٧)
I, p. 61.

Fulcher of Chartres, p. 36. (١٨)

Joshua Prawer, "Social Classes", p. 60. (١٩)

Benjamin of Tudela, I, p. 35. (٢٠)

Josiah C. Russell, "The Population of the Crusader States", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, (٢١)
vol. V, pp. 305-306.

Ibid, p. 306. (٢٢)

(٢٣) ذكر ابن جبير (الرحلة ، طبعة بيروت ، ص ٢٢٨) أن قنشرين خربت .

Russel, op. cit, p. 308. (٢٤)

(٢٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ - ص ١٣٧ . عن مذبحة بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م)
، كما أنه يتحدث عن مذابح الفرنجة في السنة نفسها في معرة النعمان بعد أن أمنوا الناس فيها - أنظر أيضا

Fulcher of Chartres , pp . 121 - 122 :

ويتحدث هذا القسيس الصليبي بفخر عن مذبحة بيت المقدس فيقول ما نصه : « . . . كثيرون من المسلمين
الذين كانوا قد تسلفوا قمة معبد سليمان هاربين أصابتهم السهام في مقتل فسقطوا من فوق السقف ، وتم ذبح
حوالي عشرة آلاف في المعبد . ولو أنك كنت هناك لغاصت قدمك حتى العقبين في دماء المذبوحين . ترى ماذا أتول
؟ إننا لم نترك منهم أحدا على قيد الحياة . ولم ينج حتى النساء والأطفال . . . » والتفاصيل التي ذكرها فوشيه عن

المذبحة المروية - التي كانت مثالا لمذابح أخرى في كل مدينة استولى عليها الصليبيون - تتفق مع ما أورده ريمون
الأجويلري (RHC . txc . III, p. 300)
وكذلك ما كتبه المؤرخ المجهول :
Gesta Francorum . pp. 84 - 92 .

Joshua Prawer, "Social Classes", p. 61. (٢٦)

Ibid. pp. 61-62. (٢٧)

Joshua Prawer, "The Settlement of the Latins in Jerusalem.", Speculum, XXVII, (1952), pp. 490 - (٢٨)
505.

(٢٩) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص ٦٦ .

(٣٠) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٢ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ .

Bernard Lewis, The Origins of Ismailism, (London 1940), pp. 117-ff. (٣٢)

Benjamin of Tudela, pp. 59-60. (٣٣)

(٣٤) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص ٦٨ - ص ٧٦ ، حيث يتعرض للكثير من تفاصيل العلاقة بين السنة
والإسماعيلية .

(٣٥) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة في مصر العصور الوسطى ، (دار المعارف ١٩٧٧) ص ٣٠ .

(٣٦) لدينا عدة روايات عن خطبة البابا أربان الثاني ، أنظر :

Fulcher of Chartres, pp. 62-66; Robert the Monk, in Peters, H. (ed.) The First Crusades
(Philadelphia 1971), pp. 2-5; Guibert of Nogent, in Riley-Smith (eds.), The Crusades; Idea and
reality 1095-1274 (London 1981), pp. 45.

وأفضل مناقشة لخطاب أربان الثاني يكلمهمون قام بها الأستاذ دانا مونرو ، أنظر :

Dana C. Munro, "The speech of Pope Urban II at Clermont", American Historical Review, II,
pp. 231-242.

(٣٧) قاسم عبده قاسم ، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية ، ص ١٠٥ - ص ١٢١ .

H.E. Mayer, The Crusades, trans. from German by John Gittingham, (Oxford Univ. Press, 1972), p. (٣٨)
6.

T.S.R. Boase, Kingdoms and strongholds of the Crusades, (London 1971), pp. 15-16. (٣٩)

Joshua Prawer, "Social Classes", pp. 52-53. (٤٠)

Ibid, p. 53. (٤١)

William of Tyre, A History of the deeds done beyond the see, transl. and annotated by: E.A. (٤٢)

Babcock and A.C. Krey, (Colombia Univ. Press, 1943), vol. II, p. 459.

Joshua Prawer, "Social Classes", p. 53. (٤٣)

Joshua Prawer, The World of the Crusades, (New York, 1972), kpp. 51-58. (٤٤)

(٤٥) قاسم عبده قاسم ، اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني (دار الفكر - القاهرة ١٩٨٧ م) ،
الفصل الثاني .

(٤٦) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨ م) ، ص ١٣٧

(٤٧) Joshua Prawer, "Social Classes", P. 95.

(٤٨) Ibid. pp. 95-96.

(٤٩) Benjamin of Tudela, pp. 62-70.

(٥٠) Urban Tignor Holmes, "Life among the Europeans in Palestine and Syria in the twelfth and thirteenth centuries", in Setton (ed.) A Hist. of the Crusades, Vol. V, pp. 21-22.

(٥١) بهاء الدين بن شداد ، النوادر السلطانية والمعاصر اليوسفية أو سيرة صلاح الدين (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ م) ، ص ٩٧ .

(٥٢) Michel le Syrien, RHC, Arm., I, pp. 327-9; Mathieu d'Edesse, Chroniques de Matt. d'Edesse (926-1136) avec la continuation de Gregoire le pretre Jusqu'en 1163, traduites par M. Edmond Dulaurier, (Paris 1858), p. 90.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٣٩ : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٣ ، ص ١٤٨ .

(٥٣) Fulcher of Chartres, pp. 148-149; Boase, Kingdoms and strongholds of the Crusades, pp. 31-32.

(٥٤) Holmes, "Life among the Europeans in Palestine and Syria" p. 3.

(٥٥) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١٣٤ - ص ١٣٥ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٨١ - ص ٨٢ ، ص ٩٢ .

(٥٧) رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٠ .

(٥٨) Holmes, op. cit., pp. 4-5.

(٥٩) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٨٣ .

(٦٠) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٢٦ : الفخري ، الآداب السلطانية ، ص ٢٩٧ .

(٦١) من مظاهر ذلك اعتماد صلاح الدين وخلفائه على المدارس السنية التي انتشرت بشكل واسع في بلاد الشام ومصر ،

ثم تعيين الظاهر بيبرس لأربعة من القضاة السنة على المذاهب الأربعة - أنظر :

ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٢٣ :

القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٤ ، ص ٤٢ وما بعدها .

(٦٢) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص ١٠٠ - ص ١٠١ .

(٦٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٨٠ .

(٦٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٢٣ - ص ٢٢٤ .

(٦٥) نفسه ، ص ٢٢٦ - ص ٢٢٧ .

(٦٦) نفسه ، ص ٢٣١ .

(٦٧) نفسه ، ص ٢٣٢ .

(٦٨) نفسه ، ص ٢٣٤ - ص ٢٦٩

James of Vitry, *Historia Iherosolimitana*, trans. by Aubrey Stewart as, "History (٦٩) of Jerusalem" P.P.T.S., XI - 2, (London 1896), pp. 89-90.

(٧٠) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٦ .

Holmes, "Life among the Europeans in Palestine and Syria", p. 5. (٧١)

(٧٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٥ .

Homes, op. cit., pp. 9-10. (٧٣)

(٧٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٦ .

(٧٥) نفسه ، ص ٢٦٠ .

Philip Hitti, "The impact of the Crusades", p. 40. (٧٦)

(٧٧) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي - عصر سلاطين المماليك (الطبعة الثانية ، دار المعارف

١٩٨٣) ص ٢٩ - ص ٦١ .

Homes, op. cit., p. 25. (٧٨)

Philip Hitti, op. cit., pp. 38-39. (٧٩)

Ibid, p. 41. (٨٠)

(٨١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٣ - ص ٢٧٤ .

(٨٢) نفسه ، ص ٢٧٤ - ص ٢٧٥ .

(٨٣) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٨٤) المقرئزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) ، ص ٧٥٤ .

Nabih Faris, "Arab Culture in the twelfth Century", in Setton (ed.), *A Hist. of (٨٥) the Crusades*, vol. V, p. 6. ,

(٨٦) رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٣ .

(٨٧) ابن العديم ، زبدة الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان في جزئين (دمشق ١٩٥١) ، ج ٢ - ١٧٣ .

(٨٨) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص ١٨١ - ص ١٩٢ .

Nabih Faris, "Arab Culture", p. 5. (٨٩)

(٩٠) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١٥٣ - ص ١٥٤ .

(٩١) المقرئزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

(٩٢) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص ٢٤٠ .

(٩٣) المقرئزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٣١ - ص ٤٣٢ ، ص ٤٩٠ .

(٩٤) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، الفصل الخاص بالاحتفالات والأعياد .

(٩٥) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص ٢٤٥ .

Ahmed Abd Ar-Raziq, *La femme au Temps des Mamluks en Egypt*, (Le Caire (٩٦) 1973), p. 59.

(٩٧) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص ٢٤٩ وما بعدها حيث نعتد عليه في الحديث عن الزواج .

(٩٨) نفسه ، ص ٢٧١ .

-
- Ahmed Abd Ar-Raziq, op. cit. pp. 62-63. (٩٩)
(١٠٠) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ٢٥٠
(١٠١) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٦٧-٢٦٨.
(١٠٢) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ٢١١.
(١٠٣) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١٣٥.
(١٠٤) نفسه، ص ١٣٦-١٣٧.
(١٠٥) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٨-٢٧٩.
(١٠٦) Fulcher of Chartres, pp. 271-72.
(١٠٧) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٧.
(١٠٨) Holmes, "Life among the Europeans", p. 11.
(١٠٩) قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيدلوجية، ص ٩١-١٠٠.
(١١٠) Anonymous Pilgrim, in P.P.T.S., VI-1, (London 1894), p. 30.
(١١١) Holmes, op. cit., p. 12.
(١١٢) James of Vitry, p. 63.
(١١٣) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٦١.
(١١٤) James of Vitry, p. 63.
(١١٥) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١٣٦-١٣٧.
(١١٦) نفسه، ١٩٠-٢٢٧.
(١١٧) James of Vitry, p. 63-ff.
(١١٨) Holmes, "Life among the Europeans", p. 23.
(١١٩) Anonymous Pilgrim, pp. 27-29.
(١٢٠) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١٣٢-١٣٧.
(١٢١) نفسه، ص ١٣٤.
(١٢٢) نفسه، ص ١٣٧-١٣٨.
(١٢٣) Philip Hitti, "The Impact of The Crusades", p. 46.
(١٢٤) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١٤٠.
(١٢٥) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٥.
(١٢٦) William of Tyre, A Hist. of the deeds done beyond the see,
أنظر مقدمة الكتاب التي كتبها الناشران.
(١٢٧) Philip Hitti, op. cit., p. 48.
(١٢٨) ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ٩٧.
(١٢٩) Philip Hitti, op. cit., p. 48.
(١٣٠) Holmes, "Life among the Europeans", p. 21.
-